

سُورَةُ غَافِرٍ

حين يصعدُ المؤمنُ بكلمته في وجه الطغيان

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ غَافِرٍ

حين يصعدُ المؤمنُ بكلمته في وجه الطغيان

تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل الرحلة

تدخل سورة غافر فتشعر أنك دخلت عالماً تتقابل فيه القوى كلها: عرشٌ تحفُّ به الملائكة، وأرضٌ يتجبرُّ فوقها الطغاة، وقلبٌ مؤمنٌ وحيدٌ يكتُمُ إيمانه زمنًا ثم يقفُ في قصر فرعون، لا يحمل سيفًا ولا سلطانًا، وإنما يحمل كلمةً أيقظها الله في صدره.

إنها سورة الصراع بين حقيقتين: حقيقة القوة كما تراها العين، وحقيقة القوة كما يكشفها الوحي.

ترى العينُ فرعونَ في مُلكه، وهامانَ في تديبره، وقارونَ في ماله، وترى المؤمنَ وحيداً مستتراً بإيمانه؛ لكن السورة تقلب موازين النظر: أولئك، على ما بأيديهم، ضعفاء محاصرون بأقدار الله، وهذا المؤمن، على وحدته، يقف موصولاً برَبِّ عزيزٍ عليم.

ولهذا لم تبدأ السورة بذكر فرعون، وإنما بدأت بمن يملك فرعونَ وملكه ومصيره:

﴿حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

حم.

حرفان يقف أمامهما العقل في أدب، كأن الوحي يعلم الإنسان منذ اللحظة الأولى أن المعرفة لا تبدأ دائماً من الإحاطة، بل قد تبدأ من التسليم؛ وأن في كلام الله آفاقاً يبلغها التدبير، وأسراراً يستأثر الله بعلمها.

ثم يأتي الإعلان المهيّب:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾.

ليس هذا الكتاب خاطراً بشرياً صعد من الأرض، بل نورٌ تنزل من السماء. وكلمة ﴿تَنْزِيلُ﴾ تجعل القلب يستشعر حركة الرحمة وهي تهبط إليه؛ فكأن المسافة بين السماء والأرض قد طويت، وكأن العلوّ انحنى بالهداية على ضعف الإنسان.

ما أعظم أن يندكر القارئ، وهو يفتح المصحف، أن الذي يخاطبه ليس مؤلفاً غائباً في التاريخ، وإنما ربُّ العالمين. كل آية إذن رسالة وصلت إليك من فوق ضجيح الأرض، وكل أمرٍ يدعوك إلى الحياة، وكل نهْيٍ يحرس فيك موضعاً قد يتسلل منه الهلاك. ثم جاء الاسمان اللذان تقوم عليهما هيبة الرسالة:

﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

هو عزيزٌ فلا يُغلب، وعليمٌ فلا يخفى عليه شيء. عزته ليست قوةً عمياء، وعلمه ليس معرفةً عاجزة؛ بل يعلم كل شيءٍ ويقدر على كل شيءٍ.

سيظهر الطغاة في السورة كثيراً، وسترتفع أصواتهم، وستحاك المؤامرات في قصورهم؛ لكن اسم العزيز قد سبقهم جميعاً. وقبل أن يقول فرعون: اقتلوا، وقبل أن يأمر هامان بالبناء، وقبل أن يغترّ قارون بماله؛ كان الحكم قد استقرّ في افتتاح السورة: العزّة لله.

وسيظهر المؤمن مستتراً بين الجدران، لا يعرف القوم سرّيته، لكن اسم العليم سبقه أيضاً؛ فإن جهل الناس إيمانه، فقد علمه الله. وما أدفأ هذا المعنى لكل عبد يحمل خيراً لا يراه أحد: إنك لست مجهولاً عند الله، ولو مررت بين الناس كأنك لا ترى.

المحطة الثانية: رَبُّ يَفْتَحُ بَابَ الرَّجُوعِ وَلَا يُؤْمِنُ الْمَصْرِينَ مِنْ عَدْلِهِ

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾

ها هنا تقف الروح بين الرجاء والخوف، ولكن الرحمة تستقبلها أولاً:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾.

لم يقل: غافر ذنب الصغير وحده؛ بل جاء اللفظ واسعاً، يفتح أمام العائدين أفقاً لا تضيق به خطاياهم. كأن الله يقول للإنسان: لا تجعل ذنبك أكبر في قلبك من مغفرتي، ولا تظن أن ظلام ما فعلت يستطيع أن يقاوم نور عفوي إذا صدقت في الرجوع.

ثم قال:

﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

فهو لا يغفر فحسب، بل يقبل العائد. وقد يغفر الإنسان لمن أساء إليه ثم يبقيه بعيداً عن قلبه، أما الله فيفتح للمذنب طريق العودة، ويقبل خطاه المرتجفة، ويبدل وحشة العصيان بأنس الإنبابة.

التوبة ليست وقوف المذنب على باب مغلق يستجدي أن يفتح؛ بل هي رجوع العبد إلى باب لم يغلقه الله في وجهه. إن الذي ألهمك الندم يريد لك النجاة، والذي حرك قلبك إلى الاعتذار لم يرد أن يطردك، وإنما أراد أن يطهرك لتعود إليه أخفّ روحاً وأصدق عبودية. لكن السورة لا تصنع رجاءً مخدراً، ولا تحول الرحمة إلى ذريعة للإقامة على الذنب، فتقول:

﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

إن اليد التي تمسح دموع التائب هي التي تقصم ظهر المستكبر. والرحمة التي تحتضن المنكسر لا تحمي الطاغية من عدل الله. وبين ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ و﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ يتربى القلب سليماً: لا يقنط إذا زلّ، ولا يأمن إذا أصرّ.

ثم:

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾؛ أي ذي الفضل والسعة والإنعام. كل ما عندك منه، وكل ما ترجوه

بيده، وكل باب سواه محدود. وقد يغلق الناس في وجهك أبوابهم، لكن خزائن ذي الطول لا تنفذ، وفضله لا تحكمه حسابات البشر.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بعد المغفرة والتوبة والعقاب والفضل، تأتي كلمة التوحيد لتجمع القلب من تشتته. لا مألوه بحق سواه، ولا ملجأ على الحقيقة إلا إليه، ولا يدير المصير غيره. فمن عرف أنه غافر الذنب لم يطلب تطهير روحه عند غيره، ومن عرف أنه شديد العقاب لم يخف أحداً نكوفه، ومن عرف أنه ذو الطول لم يمدّ فقر قلبه إلى سواه.

﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

إنها الكلمة التي تضع الطريق كله أمامك دفعةً واحدة. أنت تمضي إليه، سواء شعرت أم غفلت. العمر ليس دوراناً في المكان، بل سفرٌ متصل إلى الله. كل يوم ينقص من المسافة، وكل نفس خطوة، وكل لحظة بابٌ يُغلق خلفك. فكيف يعيدش الإنسان هارباً من إليه مصيره؟ وكيف يؤجل الصلح مع من لا بد أن يقف بين يديه؟

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾

ليست كل مناقشة مذمومة؛ فالسؤال الصادق يبحث عن نور، والحوار المخلص يريد الوصول إلى الحق. إنما المذموم هنا جدال لا يطلب معرفة، بل يصنع حجاباً يحتمي وراءه القلب من الاستجابة.

قد يعرف الإنسان الحق، لكنه يخشى تكاليفه؛ فيحول القضية من سؤال أخلاقي يتطلب منه التغيير إلى جدل فكري لا ينتهي. لا يقول: كيف أستجيب؟ بل يظل يسأل لكي يؤجل الاستجابة. وهكذا يصبح العقل، الذي خلق ليدلّ على الله، محامياً عن هوى النفس. ثم تأتي الموساة:

﴿فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾

قد يتحرك أهل الباطل في الأرض بحرية، ويمتلكون المال والمنابر والأسواق، ويسافر سلطانهم من بلد إلى بلد، حتى يخال الناظر أن الدنيا قد دانت لهم. لكن الحركة ليست نجاة، والانتشار ليس برهاناً، والتمكين المؤقت ليس شهادة من السماء بصحة الطريق. كم من باطل ملأ الأفق ثم انطفأ! وكم من طاغية ظن أن تقلبه في البلاد خروج من قبضة الله، وما كان إلا ينتقل داخل ملك الله!

لا تقس الحق بعدد المصفقين له، ولا الباطل بسعة انتشاره. فربّ كلمة صادقة بدأت في صدر رجل واحد، ثم صارت أمة؛ وربّ دولة ملأت الأرض ضجيجاً، ثم لم يبق منها إلا خبر يتعظ به العابرون.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

ينقلنا القرآن من ضجيج الحاضر إلى صمت الأمم البائدة. لقد جادلوا، وخططوا، وتحزّبوا، ومدّوا أيديهم إلى رسلهم يريدون أن يأخذوهم؛ أي أن يسجنوهم أو يبطشوا بهم أو يقتلوهم.

إن الباطل يبدأ غالباً بالسخرية، ثم ينتقل إلى الجدال، ثم ينتهي إلى العنف؛ لأنه حين يعجز عن هزيمة الفكرة يحاول إسكات حاملها. فالطغيان لا يخاف جسد المؤمن في ذاته، وإنما يخاف الحقيقة التي تقم فيه.

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

يا لها من صورة: باطلٌ يحاول أن يزج الحق عن موضعه، كأنهم يريدون إطفاء الشمس بالنفخ. قد يزينون الكلمات، ويقبلون الأسماء، ويقدمون الاستبداد في ثياب المصلحة، ويصفون المصلحين بما ينفر الناس منهم؛ لكن تغيير اللافئات لا يغيّر الحقائق عند الله. ثم تنتهي الحركات كلها بكلمتين:

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾.

كانوا يهّمون بأن يأخذوا الرسل، فإذا بالله يأخذهم. كانوا يتوهمون أن المبادرة بأيديهم، فإذا الفعل الحاسم من فوقهم. وما بين همهم وأخذ الله لهم تنكشف المسافة بين قدرة المخلوق وقدرة الخالق.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

سؤال لا يحتاج جواباً؛ فالآثار تجيب، والخرائب تجيب، وانقطاع أصوات المتجبرين يجيب. أين الذين كانوا يملؤون القصور أوامر؟ أين الحرس؟ أين الجموع؟ بقيت كلمة الله، وصاروا هم عبرة في كلمة.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

العقوبة لم تنزل بهم لمجرد خطأ عابر، وإنما بعد إصرارٍ طويل، وتكذيبٍ متعمد، ومواجهةٍ للحق، ومحاولةٍ لإسكاته. لقد أخذوا يصنعون مصيرهم موقفًا بعد موقف، حتى حَقَّتْ عليهم كلمة الله.

في كل اختيارٍ شيءٌ من بناء النهاية. لا يهبط الإنسان إلى هاويته دفعة واحدة؛ بل يبدأ بتسويةٍ صغيرة، ثم استكبارٍ خفي، ثم اعتيادٍ على ردِّ الحق، حتى يصبح القلب غير قادرٍ على رؤيته.

ولهذا كان أخوف ما يُخاف على القلب ألا يتألم من خطئه؛ لأن الألم باب التوبة، أما موت الإحساس فهو بداية الإقامة في البعد.

ومع ذلك، فقد افتتحت السورة قبل هذه الآية بقول الله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾. فقبل أن تحقَّ الكلمة، يبقى باب الرجوع مفتوحًا. وما دام في الصدر نفس، فلا يزال في العمر متسعٌ لأن تتغير الوجهة.

المحطة السادسة: فوق ضجيج الأرض دعاءٌ خفيٌ يحيط بالمؤمنين

﴿الَّذِينَ يَخُمُّونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

جفأةً ترتفع السورة بالقلب من صخب الجداول ومؤامرات الأرض إلى مشهدٍ علويٍّ مهيب: حملة العرش، ومن حول العرش، في تسبيحٍ وحمدٍ وإيمان. ولكن المفاجأة التي تفيض على القلب دفئاً هي أنهم، مع جلال مقامهم، يذكرون المؤمنين في الأرض:

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

أي كرامةٍ هذه؟

قد يكون المؤمن في غرفةٍ ضيقة، أو طريقٍ موحش، أو سجينٍ لا يعرف خبره أحد، وقد يشعر أن العالم كله قد نسيه؛ بينما ملائكة عند العرش تذكره في دعائها. لا تعرف اسمه، لكن الإيمان الذي في قلبه أدخله في هذا الدعاء العظيم. لستَ وحيداً ما دمت مؤمناً. إن لك في السماء أجرةً لم ترهم، يستغفرون لك من غير قرابة ولا مصلحة؛ وإنما جمع الإيمان بين قلبك الطيني وأرواحهم النورية.

ويدوون دعاءهم بحسن الثناء على الله:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾.

قدّمت الرحمة هنا لتسكب الأنس في القلب، وقرن بها العلم لتعلم أن الرحمة ليست بعيدة عن تفاصيلك. رحمته وسعت ضعفك لأنه يعلمه، وسعت دمعتك التي أخفيها، وندمك الذي لم تحسن التعبير عنه، وصراعت الذي لم يره الناس.

إنك لا تدخل إلى رحمة تجهلك، بل إلى رحمة تعلمك.

﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

التوبة ليست كلمةً يقولها اللسان ثم يعود إلى طريقه القديم؛ لذلك قالوا: ﴿تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾. فصدق الرجوع يظهر في تحوّل الاتجاه. التائب لا يدّعي أنه لم يخطئ، بل يعترف أن الطريق الذي سلكه لم يكن طريقه، ثم يضع قدمه في سبيل الله.

والملائكة لا تسأل لهم المغفرة فحسب، بل تسأل الوفاة. كأنها تستر ضعفهم برحمة الله، وتحيط نهايتهم بالدعاء.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

دعاء الملائكة يعرف طبيعة القلب البشري؛ فالإنسان لا يكتمل نعيمه وهو يرى أحبابه بعيدين عنه. لذلك يسألون الله أن يجمع المؤمن بمن صلح من آبائه وأزواجه وذريته. الجنة ليست بيتاً فائراً فحسب، بل اجتماع بعد شتات، ووصل بعد فراق، وعودة الوجوه التي غابت وقد نزع من اللقاء خوف الفقد إلى الأبد.

كم من مائدة في الدنيا بقي فيها مقعد فارغ، وكم من بيت تغير صوته بعد رحيل عزيز، وكم من عين تبحث في الذاكرة عن وجه لن يعود إليها هنا! تأتي هذه الآية لتقول: إن الفراق الذي وقع في الدنيا ليس نهاية الحكاية. ما دام الإيمان قد جمعكم، فثمة رجاء أن يجمعكم الله في دار لا يمر الموت من أبوابها.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بعزتكم تقدر على جمع ما فرقه الموت، وبحكمتكم تضع الرحمة في موضعها، وتجعل كل قضاء من أفضيتك جزءاً من تمام لم نره بعد.

المحطة الثامنة: الفوز الحقيقي أن تنجو الروح من عاقبة سيئاتها

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

ليست المسألة أن تغفر السيئة وحدها، بل أن يقي الله العبد شؤمها وامتداد أثرها وعاقبتها. فالذنوب قد ينتهي فعله في لحظة، لكن ظلّه قد يمتد في القلب والعمر والمصير. ومن رحمة الله أن يظهر الصفحة، ويشفي القلب، ويقطع عن العبد الطريق الذي كان سيعيده إلى السقوط.

﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾.

هناك تتجلى حقيقة الرحمة. قد يظن الإنسان في الدنيا أن الرحمة هي أن ينال كل ما يشتهي، لكن الملائكة تعرف أن أعظم الرحمة أن يحملك الله من الشيء الذي يهلكك، ولو خالف هواك؛ وأن يخرجك من الدنيا بقلب سليم، ولو تعبت في الطريق.

ثم تحسم السماء مقاييس الفوز:

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ليس الفوز أن يعلو اسمك ثم يسقط، ولا أن تتسع أملالك ثم تتركها، ولا أن تغلب خصومك في معركة عابرة. الفوز العظيم أن تنجو من النار، وأن تدخل الجنة، وأن يرضى الله عنك، وأن تصل بعد هذا السفر كله إلى موطن لا خوف فيه ولا حزن. يا لها من بداية للسورة: في الأرض قومٌ يجادلون بآيات الله، وفي السماء ملائكةٌ يستغفرون للمؤمنين. أولئك يحاولون إطفاء الحق، وهؤلاء يسألون الله أن يحفظ أهله. وبين المشهدين يمضي المؤمن مطمئناً: قد تضيق به الأرض، لكن السماء من فوقه مفتوحة، وقد يجعله أهل الدنيا، لكن ذكره بلغ حملة العرش.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

بعد مشهد الملائكة وهم يستغفرون للمؤمنين، تنقلنا السورة إلى الطرف الآخر من المصير: أناسٌ لم يضيّعوا فرصةً عابرة، بل ظلوا يردّون نداء الإيمان حتى انتهى زمن الاختيار. هناك، حين تتساقط عن النفس أذارها، ينظر الإنسان إلى تاريخه كاملاً في لحظة، فيرى كم كان قريباً من النجاة، وكم مرة امتدت إليه يد الرحمة فردّها، وكم آية مرّت بقلبه فلم يفتح لها الباب. عندئذ يمقت نفسه؛ لأن أشد الآلام أن يكتشف المرء أنه كان قادراً على النجاة، لكنه اختار طريق هلاكه بملء إرادته.

إن أهل النار لا يمتنون أنفسهم لأن الحق كان خفياً دائماً، بل لأنهم يُبصرون كيف دُعوا إليه ثم كفروا. كانت أبواب العودة مفتوحة، وكانت الفطرة تهمس، والآيات تُذكر، والموت يطوف بالناس من حولهم، ولكنهم عاشوا كما لو أن المهلة لا تنتهي.

ثم يُقال لهم إن مقت الله لهم حين كانوا يردّون الإيمان أكبر من مقتهم لأنفسهم الآن. كانوا يظنون أن كفرهم موقف فكري لا أثر له، لكنه كان في حقيقته إفساداً لأشرف ما وهب لهم: القلب الذي خلق ليعرف ربه.

ما أخطر أن يعيش الإنسان عدواً لنفسه وهو يظن أنه يحسن حمايتها! يرفض الحق ليربحها، فيوردها موارد العذاب. يمنعها من ألم المجاهدة القصير، فيسلّها إلى ألم الندامة الذي لا ينقطع.

المحطة العاشرة: الاعتراف الذي جاء بعد انتهاء زمن العمل

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾

الآن يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾.

كانوا في الدنيا ينفرون من العبودية، فإذا انكشفت الحقيقة نادوا ربهم. لكن الإيمان الذي يُولد تحت ضغط المعاناة ليس كالإيمان الذي اختار صاحبه ربّه وهو يستطيع أن يعصيه. لقد انتهى الامتحان، وصارت الغيوب شهادة، ولم يعد الاعتراف بطولّة روحية، بل ضرورة لا مهرب منها.

﴿أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾.

عرفوا الآن أن وجودهم كله كان في قبضة الله: موتٌ وحياة، ثم موتٌ وحياة. لم يكونوا مالكي بدايتهم، ولا مالكي نهايتهم، ولا قادرين على منع الانتقال من طور إلى طور. وما حسبه حرية مطلقة لم يكن إلا مهلة محدودة داخل سلطان الله.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

الاعتراف في الدنيا توبة، أما الاعتراف بعد انقضاء الأجل فحسرة. في الدنيا تستطيع أن تجعل من دمعتك بداية، ومن ندمك طريقاً، ومن سقوطك سلماً إلى الله؛ أما هناك فلا يعود الندم قادراً على تغيير ما مضى.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

إنه سؤالٌ مبلّل باليأس. لا يطلبون منزلةً في الجنة، وإنما مخرجاً من النار. أغلقت الطموحات كلها، وانكمشت آمانياتهم الواسعة في الدنيا إلى أمنية واحدة: الخروج.

كم من إنسان في الدنيا يضيق بطريق الطاعة، كأن النجاة عبءٌ عليه، ثم يتنى في الآخرة أن يعود ليفعل أي شيء يفتح له طريقاً إلى الخلاص! إن السورة تضع هذا المشهد أمام القلب الآن، لا لتدفعه إلى القنوط، بل لتوقظه قبل أن يصير الرجوع مستحيلاً.

الخطوة الحادية عشرة: المشكلة لم تكن في غياب الدليل، بل في استكبار القلب

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

هنا تنكشف العلة العميقة: كانوا يضيّقون بتجريد العبادة لله وحده.

إن النفس قد تقبل ديناً لا ينزع منها أهواءها، وإيماناً لا يحاكم شهواتها، وعبادةً موزعةً بين الله وبين ما تحب. لكنها تتردد أمام كلمة وحده؛ لأن التوحيد ليس فكرة تُضاف إلى الحياة، بل سيادة تُعيد ترتيب الحياة كلها.

أن تعبد الله وحده يعني ألا يكون المال إلهاً خفياً، ولا الجماعة معبوداً، ولا الزعيم مقدساً، ولا الهوى مشرعاً، ولا الخوف من الناس حاكماً على الضمير. ولهذا قاوم الطغاة التوحيد؛ لأنهم أدركوا أن القلب إذا تحرر لله لم يعد يركع لهم.

كانوا إذا ذكروا الله منفرداً نفروا، وإذا جعلت له أنداداً استراحوا. يريدون الله مكاناً في حياتهم، لكنهم لا يريدون أن تكون الحياة كلها لله. يقبلون به رباً في أوقات الضعف، ويرفضونه حاكماً حين تتعارض أوامره مع مصالحهم.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

حاولوا في الدنيا أن ينتزعوا الحكم لأنفسهم، وأن يجعلوا أهواءهم مقياساً، وأن يقبلوا من الحق ما يوافقهم ويرفضوا ما يشق عليهم؛ لكن الحكم في النهاية لله.

هو العلي؛ فلا تبلغه يد التمرد، ولا يهدد ملكه عصيان العاصين.

وهو الكبير؛ فكل ما استكبر في الأرض صغيرٌ بين يديه، وكل عرشٍ بشريٍّ مهما علا لا يعدو أن يكون ذرةً في ملكه.

المحطة الثانية عشرة: الآيات تنزل كل يوم، لكن من الذي يراها؟

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾

الآيات ليست محصورةً في صفحات الكتاب؛ فالكون كله كتابٌ مفتوح. شمسٌ تشرق بعد ليل، وماءٌ ينزل من سحاب، وأرضٌ ميتةٌ تهتز بالحياة، وجسدٌ يعمل في صمت، وقلبٌ يتقلب بين حالٍ وحال: كلها إشارات تقول إن وراء هذا الوجود قدرةً وعلمًا ورحمةً.

﴿وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾.

ينظر الإنسان إلى الطعام فيراه شيئاً اشتراه بماله، لكن القرآن يعيد النعمة إلى أول الطريق. من أنزل الماء؟ من شقّ الحب؟ من أودع في التراب هذه القابلية العجيبة للحياة؟ من جعل البذرة الصغيرة تحتزن سنابل كثيرة؟ من حفظ نظام الكون حتى وصلت اللقمة إلى يدك؟ إننا نقف غالباً عند آخر سببٍ في سلسلة الرزق، فننسب النعمة إليه، وننسى اليد التي أنشأت الأسباب كلها.

والرزق ينزل ﴿لَكُمْ﴾؛ في الكلمة عنايةٌ خاصة، كأن المطر لا يسقط سقوطاً عشوائياً، وإنما يُساق إلى حاجات الخلق بعلم الله. كل قطرة تحمل معها تقديراً، وكل ثمرة وصلت إليك عبر طرق لا تحصى هي رسالة رعاية.

لكن الآيات، على وضوحها، لا توقظ كل قلب:

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

المشكلة ليست دائماً في قلة البراهين، بل في اتجاه القلب. القلب المنيب يرى في قطرة الماء باباً إلى معرفة الله، أما القلب المستكبر فقد يرى الكون كله ولا يرى وراءه شيئاً. الإنابة هي أن يكون في القلب ميلٌ دائماً إلى الله؛ كلها شرد أعادته الآية، وكلها قسا أيقظته الموعظة، وكلها أخطأ لم يبحث عن حجةٍ يجهل بها خطأه، بل بحث عن طريق العودة.

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

بعد أن بينت السورة أن الذي يتذكر هو من ينيب، جاء النداء:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾.

الدعاء اعتراف بأن الإنسان، مهما قوي، لا يستغني عن ربه. هو سقوط الأفتعة أمام الله؛ فلا مالك هناك إلا هو، ولا قادر في الحقيقة سواه. حين تدعو، تعود إلى حقيقتك الأولى: عبدٌ فقير يقف على باب الغني.

لكن الدعاء لا يكفي إذا ظل القلب موزعاً:

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

الإخلاص تحرير للعبادة من مراقبة الخلق. أن تعمل لله حين يراك الناس وحين لا يرونك، وأن تقول الحق لأن الله يحبه لا لأن الجمهور يصفق له، وأن تظل ثابتاً إذا أقبل الناس وإذا أدبروا.

المخلص لا يستمد قيمة عمله من انتشاره؛ لأن قبوله في السماء أعظم عنده من ظهوره في الأرض. وقد يكون العمل صغيراً في عين الخلق، لكنه يصعد إلى الله عظيماً لأن قلباً صادقاً حمله.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

هنا تتحول العبادة إلى موقف. لا تجعل كراهية الآخرين للحق تضعف يقينك به. ليس المطلوب أن نتمدد استفزاز الناس، بل ألا تجعل رضاهم شرطاً لطاعتك.

هناك من يعبد الله ما دامت العبادة لا تكلفه رفضاً اجتماعياً، فإذا استوحش الطريق تراجع. أما الإخلاص الحق فهو أن يبقى القلب وفياً لله، ولو أصبح غريباً بين الناس. إن المؤمن لا يسأل أولاً: هل سيرضى الناس؟ بل يسأل: هل يرضى الله؟ فإذا رضي الله هان بعد ذلك كل سخطٍ لا يقوم على حق.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

ترتفع السورة مرةً أخرى بالقلب:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾.

هو رفيع الصفات، رافع درجات أوليائه، صاحب الملك الأعلى. فمن أراد الرفعة فليطلبها عنده، لا عند أبواب البشر. قد يرفع الناس إنساناً اليوم ثم يضعوه غداً، أما الدرجة التي يرفع الله إليها عبداً فلا يملك الخلق أن يسلبوه معناها.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾.

الوحي روح؛ لأن الأجساد قد تتحرك وهي ميتة المعنى. قد يأكل الإنسان ويمشي ويجمع ويخاصم، لكن قلبه بلا وحي يكون كبيتٍ مضاء من الخارج مظلم من الداخل.

ينزل الوحي على القلوب فيمنحها حياةً أخرى: ترى بها ما وراء العاجل، وتسمع نداء الآخرة داخل ضجيج الدنيا، وتعرف بها أن الإنسان ليس جسداً يبحث عن متعته، بل روحاً تبحث عن ربها.

وسَيُّ الوحي روحاً لأن الحياة الحقيقية ليست مجرد استمرار النبض، وإنما معرفة الله. كم من حي بين الناس قد مات قلبه، وكم من ميتٍ غاب جسده وما زالت كلماته الموصولة بالوحي تحيي أجيالاً!

﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

إنه اليوم الذي تلتاق فيه كل الطرق، وتجتمع فيه الخلائق، ويلتقي الأولون والآخرون، ويلتقي الظالم بالمظلوم، ويلتقي العمل بصاحبه، ويلتقي الإنسان بما كان يهرب منه، ويقف الجميع بين يدي الله.

في الدنيا قد يفترق الجاني عن جنائته، ويموت المظلوم قبل أن يرى الإنصاف، ويختبئ المفسد خلف سلطانه؛ أما يوم التلاق فتعود الخيوط كلها إلى موضعها، ولا تضيع قصة، ولا تُنسى دعة، ولا يسقط حق.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾
﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾.

لا جدار، ولا قصر، ولا حرس، ولا اسم اجتماعي يختبئ المرء وراءه. تخرج الأجساد من الأرض، وتخرج السرائر من خفائها، ويبرز الإنسان كما هو. كان يستطيع في الدنيا أن يصنع لنفسه صورةً غير حقيقته، وأن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وأن يختبئ خلف البلاغة والشعارات؛ أما هناك فلا يبقى إلا جوهره العاري من الزينة.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

لم يكن شيءٌ خافياً عليه في الدنيا، ولكنهم كانوا يتصرفون كما لو أن الظلام يسترهم منه، أو أن خفاء النية عن الناس يجعلها خافيةً عن رب الناس. يعلم الله الجريمة التي لم يشهدها أحد، والخير الذي لم يشكر عليه أحد، والوجع الذي لم تستطع وصفه، والنية التي أسيء فهمها. وهذه الآية خوفٌ للمسيء، لكنها أمانٌ للمظلوم والمخلص والمنكسر؛ فإن ضاعت حقيقتك بين تأويلات الناس، فهي عند الله لا تضيع. ثم يجيء السؤال الذي يملأ الموقف كله:

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟﴾

أين الملوك؟ أين الذين قسموا الأرض كأنها ميراثهم؟ أين من قالوا: لنا الأمر، ونحن نحجي ونميت، ونحن نمنح ونمنع؟ أين الألقاب التي كانت تسبق أسماءهم، والحشود التي تتحنى عند مرورهم؟

يسكت الكون كله، ويأتي الجواب:

﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

كان الملك لله في الدنيا أيضاً، لكن الوهم كان يناعز الحقيقة في عيون الناس. أما اليوم فقد زال الوهم، وبقي الملك عارياً من كل ادعاء. هو الواحد؛ سقط الشركاء المتوهمون.

وهو القهار؛ انكسرت الإرادات المتمردة، وخضعت الجباه التي أبت السجود.

ما أجمل أن يجيب المؤمن عن هذا السؤال في الدنيا قبل أن يسمعه في الآخرة: الملك لله.
فإذا استقر الجواب في قلبه لم يستعبده مالك، ولم يرعبه طاغية، ولم يفتنه منصب؛ لأنه يعلم
أن كل يد فوق الأرض تحت يد الله، وكل سلطان إلى زوال، وكل ملك مستعار سيعود
إلى مالكه الحق.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾.

لا تضيع نفسٌ في الزحام، ولا يُنسى فردٌ بين مليارات الخلق. سيُستدعى كل إنسان بقصته، ونيتته، واختياراته، وما قدّم وما أخر.

﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الأعمال التي ظن الإنسان أنها ذهبت أصبحت هي رصيده الباقي. الكلمة التي خرجت منذ أعوام ما زالت محفوظة، واليد التي مسحت دمعاً لم يضع أثرها، والخطوة التي مشاها في الظلام إلى معصيةٍ أو طاعة لا تزال مكتوبة. نحن نعبر أيامنا ونظن أننا نتركها خلفنا، لكننا في الحقيقة نودع فيها أنفسنا، ثم نجدّها أمامنا يوم القيامة.

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

ما أبهى هذه الكلمة في عالم امتلأ بالظلم! لا يُحمّل بريءٌ ذنب غيره، ولا يُنقص محسنٌ من إحسانه، ولا يستطيع قويٌّ أن يشتري القاضي، ولا صاحب نفوذ أن يغيّر الوثائق. هناك تنتهي عصور التزييف كلها، ويعرف المظلوم أن صبره لم يكن ضياعاً، وأن الحق قد يتأخر في عين الإنسان، لكنه لا يسقط من حساب الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

لا تشغله نفسٌ عن نفس، ولا قضيةٌ عن قضية. يحاسب الخلق جميعاً بعلم لا يختلط، وعدل لا يضل، وقدرة لا يعجزها كثرة.

المحطة السابعة عشرة: القلوبُ تبلغُ الحناجر

﴿وَأَنْذَرُهمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

سُمِّيتِ القيامةُ الآزفةُ لأنها قريبة. وكل آتٍ قريب، فكيف بما يسير الإنسان إليه مع كل نبضة؟

لكن الغافل يرى الموت بعيداً لأنه لا يعرف مواعده، مع أن جهله بالموعد ينبغي أن يجعله أشد استعداداً، لا أشد غفلة.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾.

صورةٌ للخوف حين يصعد من أعماق النفس حتى يكاد يخنقها. القلوب في مواضعها، لكن شدة الهول تجعل صاحبها يشعر بها عند حنجرتة. لا يستطيع ردّها، ولا يستطيع إخراج ما في صدره.

﴿كَاطِمِينَ﴾.

محبوسو الأنفاس والأحزان، لا يجدون كلمةً تنقذهم. كم كانوا في الدنيا يتكلمون بثقة، ومجادلون بجرأة، ويصدرون الأحكام كأن المصير بأيديهم! أما الآن فقد انعقدت الألسنة، ولم يبق إلا صوت الحقيقة.

﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ﴾.

أين الأصدقاء الذين كانوا يعينونهم على الباطل؟ أين دوائر المصالح؟ أين الذين زينوا لهم أفعالهم؟ تفرقت الصحبة التي لم تبُنْ على الله، وبقي كل امرئ وحده أمام ما كسب.

﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾.

لا وساطة تنتزعهم من العدل، ولا مكانة تجبر حكم الله. لقد عاشوا يتوهمون أن العلاقات تستطيع إصلاح كل شيء، فجاءوا إلى يومٍ لا تنفع فيه علاقة لم يأذن الله بها.

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

ما أدق هذا العلم!

﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾: تلك النظرة التي يسرقها الإنسان حين يظن أن أحداً لا يراه، والإشارة الصامتة التي تحمل معنى لا يجروء اللسان على قوله، واللمحة التي تتظاهر بالبراءة بينما وراءها قصدٌ خفي.

العين قد تسكت، لكنها تتكلم عند الله.

ثم ما هو أعمق من حركة العين:

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

يعلم الفكرة قبل أن تصير كلمة، والنية قبل أن تصير فعلاً، والحسد حين يلبس ثوب النصيحة، والرياء حين يتزين بصورة الإخلاص، والكبر حين يتخفى في عبارة الدفاع عن الكرامة.

لكن الآية ليست تهديداً فقط؛ إنها سكينَةٌ أيضاً. يعلم الله حُبَّ عجز لسانك عن بيانه، وصدقا لم يحسن الناس قراءته، ودمعة رجعت إلى العين كيلا يراها أحد، ودعاء لم تستطع أن تتمه لأن البكاء قطعه.

إذا كان علم الله مخيفاً للمراوغ، فهو بيتٌ أمانٍ للصادق.

ولذلك كانت مراقبة الله ليست شعوراً بأنك مطارد، بل يقيناً بأنك مكشوف لرحمة عادلة: يراك حين تزلّ لتعود، ويراك حين تُظلم لينصفك، ويراك حين تخلص فلا يضيعك.

المحطة التاسعة عشرة: عدلٌ يملك العلم والقدرة

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يقضي الله بالحق؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ولا تحكمه شهوة، ولا تميل به قرابة، ولا يخدعه بيان خصم، ولا يخفى عليه موضع الحقيقة.

أما ما يدعى من دونه فلا يقضي بشيء؛ فكيف يملك المصير من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً؟ وكيف يعلّق القلب بمخلوقٍ فقير، ويترك الغني الذي بيده الأمر كله؟
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

سمع كلمة الظالم وإن همس بها خلف الأبواب، وسمع أنين المظلوم وإن لم يستطع الكلام. رأى اليد تمتد بالعدوان، ورأى القلب ينكسر في الخفاء. لا تحتاج عدالة الله إلى شاهدٍ يدلّها، ولا إلى وثيقةٍ نجا صاحب الباطل من تمزيقها. لقد سمع الله ورأى؛ وذلك يكفي لكي يطمئن كل صاحب حق.

الحطة العشرون: السير في الأرض ليس انتقالاً في المكان، بل عبوراً في مصائر الأمم

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾

يدعو القرآن الإنسان إلى أن يسير، لكن ليس سير السائح الذي يلتقط الصور ويمضي؛ بل سير المتأمل الذي يقرأ تحت الحجارة سيرة الغرور البشري.

كانت أُممٌ قبلهم أشد قوة، وأعظم آثاراً. نحتوا، وبنوا، وشادوا، وتركوا في الأرض علاماتٍ توحى بأنهم سيقون. لكن الآثار بقيت وغاب أصحابها؛ كأن الحجارة التي رفعوها لتشهد على مجدهم صارت تشهد على فناءهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

لم تهلكهم قوتهم، بل أهلكهم انحرافهم بها. فالقوة في ذاتها نعمة، لكن حين تنفصل عن الحق تتحول إلى أداةٍ تعجل السقوط. والحضارة لا يحفظها ارتفاع المباني إذا انهار ضمير الإنسان داخلها.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

امتلكوا ما يقيمهم من أعدائهم، لكنهم لم يمتلكوا ما يقيمهم من الله. كانت لهم حصونٌ من البشر والحجر، غير أن الذنب فتح في داخلها ثغرةً لا يسدها جيش. ليس السؤال الأعظم: ما مقدار قوتك؟ بل: في أي طريق تستخدمها؟ فالطاعة تجعل الضعف محفوفاً بعناية الله، والمعصية تجعل القوة مكشوفةً أمام عقابه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

لم يأخذهم الله قبل البيان. جاءتهم الرسل بالبينات؛ بحجج واضحة توقظ العقل وتخطب الفطرة، لكنهم كفروا.

فالبيان لا ينفع قلباً اتخذ قراره قبل أن يسمع. قد يكون الدليل ظاهراً، لكن الكبر يضع على العين غشاوة. ليست كل حيرة نقصاً في الحجّة؛ فقد تكون الحجّة كاملة، لكن النفس تخشى ما سترتب على الاعتراف بها.

ثم يعود اسم القوة والعقاب:

﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

لم تكن قوة الأمم عائقاً أمامه، ولم يحتج لإهلاكها إلى قوةٍ مثل قوتها؛ إنما قال لها: انتهى الأجل، فانتهت.

وهنا تنبأ السورة للدخول إلى أكثر مشاهدتها توتراً: موسى يقف أمام منظومةٍ كاملة من القوة؛ أمام فرعون الذي يملك السلطان، وهامان الذي يدير أدواته، وقارون الذي يمثل سطوة المال.

ثلاثة وجوه للطغيان: حاكمٌ يتأله، وبطانةٌ تنظّم استبداده، وثروةٌ تمدّه بأسباب النفوذ. وفي مواجهتهم رسولٌ يحمل الآيات، ثم رجلٌ من داخل القصر ظل يكتُم إيمانه حتى جاءت اللحظة التي لم يعد فيها الصمت نجاةً، بل خيانةً للحقيقة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

تبدأ المواجهة برسول واحد، لكنها ليست مواجهة رجل بثلاثة رجال؛ إنها مواجهة الوحي بمنظومة الطغيان كاملة.

فرعون يمثل السلطة حينئذ، وهامان يمثل الجهاز الذي يدبر للطاغية ويحول نزواته إلى سياسات، وقارون يمثل المال حين يفصل عن الشكر ويصبح ذراعاً للهيمنة. السلطان، والبطانة، والثروة: ثلاثة أضلاع يصنع منها الاستبداد قفصه الكبير. وفي الجهة الأخرى يقف موسى، لا يملك خزائن قارون، ولا جهاز هامان، ولا جنود فرعون؛ لكنه يحمل ما هو أبقى: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

إنه سلطان الحجة، لا سلطان السوط. قوة الحقيقة التي لا تحتاج إلى جيش كي تكون حقاً. قد تُمنع من الوصول إلى الناس، وقد يُعذَّب حاملها، لكنها تظل في ذاتها عالية على خصومها؛ لأن الباطل يستطيع محاصرة القائل، ولا يستطيع تحويل الكذب إلى حقيقة. قالوا:

﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

لم يناقشوا الآيات، بل شوّوها صاحبها. إنها حيلة الطغيان القديمة: إذا عجز عن إسقاط البرهان حاول إسقاط حامله في أعين الناس. يختصر الرسالة كلها في تهمة، ويستبدل التفكير بالخوف، ويصنع لقباً يكرره حتى يظن العامة أن التكرار دليل. ويا للعجب! جمعوا له بين السحر والكذب، مع أن الساحر في عرفهم يأتي بما يرى أثره؛ فكأن الآيات أرهقتهم، ولم يجدوا إلا أن يعترفوا بقوتها ثم يفسروها تفسيراً يحفظ لهم سلطانهم.

الطاغية لا يسأل: أحق ما جاء به الرسول؟ بل يسأل: ماذا سيحدث لعرشي إن صدّقه الناس؟

المحطة الثالثة والعشرون: حين لا يجد الباطل جواباً للفكرة فيمدّ يده إلى الأبناء

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

لم تقل الآية: فلما جاءهم بما زعم أنه الحق، بل:
﴿بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾.

لقد حُسمت حقيقة الرسالة في السماء، وإن ظلت موضع خصومة في الأرض. فالأشياء لا تصبح حقاً بتصويت الناس عليها، ولا تتحول باطلاً لأن الطغاة أنكروها. يكفي أن تكون من عند الله.

لكن جوابهم لم يكن حجة، وإنما مجزرة:
﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.

حين يعجز الطغيان عن قتل الفكرة، يحاول قتل المستقبل الذي سيعملها. يستهدف الأبناء؛ لأنهم امتداد الجماعة، ويستبقي النساء للإذلال والاستعباد. إنه لا يريد هزيمة خصمه فقط، بل يريد أن يصنع جيلاً مكسوراً لا يقدر على النهوض. وهكذا يكشف العنف عجز صاحبه. كلها اتسع البطش، ظهر أن الحجة قد ضاقت. إن الذي يملك جواباً لا يحتاج إلى ذبح الأطفال، والذي يثق بصواب مذهبه لا يخاف من صوت أعزل.

ثم تأتي الجملة التي تحفظ قلب المؤمن من الانهيار أمام المشهد:
﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

قد يصيب كيدهم أجساداً، ويهدم بيوتاً، ويملأ الأرض جراحاً؛ لكنه لا يبلغ الغاية التي أرادوها. يريدون إطفاء نور الله، فيجعل الله من دماء الضحايا وقوداً لذاكرة الحق. يريدون أن يرهبوا الناس، فإذا ببطشهم يفضحهم. يريدون أن يقطعوا الطريق، فإذا بالأجيال تكتشف من خلال جرائمهم أين يقع الحق.

ليس معنى ضلال كيدهم أن المؤمنين لن يتألموا، بل أن الألم لن يمنح الباطل النصر النهائي. قد يربح الطاغية جولةً في الزمن، لكنه يخسر المعنى والمصير.

المحطة الرابعة والعشرون: الطاغية الذي يطلب الإذن في القتل

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾
﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾.

كان في مجلس فرعون من كان يؤخره، أو كأنه يريد أن يصنع للقتل غطاءً من المشاورة. فالطغيان، مهما انفراد، يجب أن يوزع دمه على أيدي الحاضرين؛ حتى تتحول الجريمة من قرار فردٍ إلى تواطؤ مؤسسة. ثم يقول في استخفاف: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.

يتظاهر بالشجاعة، لكن الجملة نفسها تكشف اضطرابه. لو كان موسى في نظره مجرد ساحر كذاب، فلماذا يخاف بقاءه؟ ولماذا يجتمع القصر كله لمواجهة رجلٍ أعزل؟ إنه يستخف برب موسى بلسانه، بينما يرتعد من رسالة موسى في أعماقه. ثم يرتدي الطاغية ثياب الحارس الأمين:

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

فرعون، الذي يقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، صار فجأةً غيوراً على دينهم! إنه لا يدافع عن دينٍ يهديهم، بل عن نظامٍ يضمن خضوعهم. فدين الطاغية هو كل تصورٍ يجعل سلطانه مقدساً، وطاعته واجبة، والاعتراض عليه خروجاً على الجماعة. ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

هكذا ينقلب ميزان الكلمات: يصبح الرسول مفسداً، ويصبح قاتل الأطفال حامياً للأرض. الطغيان لا يكتفي بممارسة الجريمة، بل يعيد تسمية الأشياء حتى تبدو الجريمة واجباً، ويبدو الإصلاح خطراً.

لقد كان موسى يريد تحرير الإنسان من عبادة فرعون، لكن فرعون سمى الحرية فساداً؛ لأن كل حرية لا تمر من بوابته تهديدٌ لعرشه.

كم يتكرر هذا المشهد: المفسد يتحدث عن حماية المجتمع، والكاذب يتهم الصادق بالتضليل، ومن مَرَّق الأمة يزعم أنه يحرس وحدتها. وإذا فقدت الكلمات اتصالها بالحق، أمكن للطغاة أن يقتلوا الناس باسم إنقاذهم.

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

لم يرد موسى على تهديد القتل بتهديد مثله، ولم يدخل في مزاييدة مع فرعون؛ بل دخل إلى الحصن الذي لا يراه الجنود:

﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

الاستعاذة ليست كلمة خوفٍ سلمي، بل انتقال القلب من النظر إلى قوة الخطر إلى النظر في قوة الحافظ. كان فرعون يملك الجنود، لكن موسى يملك اليقين بأن فرعون نفسه في ملك الله.

وقال: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، فهذه بكلمات قليلة أصل دعوى فرعون. لست رباً كما تزعم؛ لك رب كما لي رب، وأنت عبدٌ وإن جلست على العرش، ومحكومٌ وإن أصدرت الأحكام. إن المستعبد بالله لا ينكر وجود الخطر، لكنه ينكر استقلاله بالتأثير. يعلم أن السيف موجود، وأن السجن مؤلم، وأن الطاغية قادرٌ ضمن الحدود التي أذن له بها؛ لكنه يعلم أن فوق هذه الأسباب إرادة لا تنفذ الأشياء إلا بإذنها.

ثم كشف موسى جوهر الطغيان:

﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

الكبر والإنكار الأخروي متلازمان. فمن آمن حقاً أنه سيقف وحيداً بين يدي الله، وأنه سيسأل عن الدمعة والدم والكلمة، صعب عليه أن يتأله فوق الناس.

إن يوم الحساب يكسر في النفس وهم الإفلات. أما الطاغية فيريد عالماً بلا آخره؛ لأن الآخرة تعني أن هناك محكمة لا يسيطر عليها، وشهوداً لا يستطيع تهديدهم، وحقاً لا يملك تعطيله.

لقد احتفى موسى من جسد فرعون بربه، واحتفى من منطق فرعون بالآخرة. فالذي يرى يوم الحساب أمامه لا يهرب سلطاناً قصير العمر.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾

هنا يظهر بطل السورة الإنساني: رجلٌ لم تذكر الآيات اسمه، لكنها خلّدت موقفه. كان من آل فرعون؛ يعيش داخل المنظومة، يعرف طرق تفكيرها، ويرى ما لا يراه البعيدون. وكان يكتم إيمانه؛ ربما حمايةً لنفسه، أو انتظاراً للحظة التي يصبح فيها إظهاره أنفع للحق.

ليس كل كتمانٍ جبنًا؛ فقد يكون تدبيرًا. لكن تأتي لحظةٌ يتحول فيها الصمت من حكمةٍ إلى خذلان. وحين سمع هذا الرجل كلمة القتل، علم أن الإيمان الذي لا يدفعه الآن إلى الكلام سيتحول في صدره إلى شاهدٍ عليه.

نفرجت الكلمة:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟﴾

ما جريمته؟ أنه قال: ربي الله!

إن الطغيان لا يخشى العبارات الدينية حين تكون زينةً في المجالس، لكنه يخاف كلمة ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ حين تعني أن فرعون ليس ربًّا، وأن أوامره ليست فوق الحق، وأن للإنسان ولاءٌ أعلى من ولائه للسلطة.

كان الرجل يدافع عن موسى، لكنه في الحقيقة يدافع عن حق الإنسان في أن يكون قلبه لله.

ثم أضاف:

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

لم يكتفِ بإثارة العاطفة، بل أعادهم إلى الدليل. فموسى لم يأتكم بدعوى عارية، وإنما ببينات. وتأمل قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ إنه يمرر التوحيد داخل القصر بحكمةٍ وشجاعة: الآيات ليست من رب موسى وحده، بل من ربكم أنتم أيضًا، وإن أنكرتموه.

ثم خاطبهم بمنطق الاحتمال الذي يفضح التهور:

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾.

إن كان كاذباً، فسيتحمل وزر كذبه، وليس القتل طريقاً إلى كشفه. ولكن ماذا إن كان صادقاً؟ ماذا لو كان هذا الرجل الذي تريدون قتله رسولاً من عند الله؟ عندئذ لن تكونوا قد أخطأتم في قضية صغيرة، بل واجهتم رب العالمين. قال: ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، مع أن وعد الرسول حق كله؛ لكنه يسوق خطابه برفق المتدرج، فيأخذهم من أدنى ما يمكن لعقولهم المكابرة أن تحتمله. وكأنه يقول: يكفي أن يصيبكم بعض ما يحذركم منه حتى يكون قرار القتل حماقة لا تُحتمل. وفي ختام كلامه يضع قاعدة تبدو عامة، لكنها تمسّ فروعاً من الداخل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾.

إن كان موسى كما تزعمون مسرفاً كاذباً فلن يهديه الله إلى النصر؛ فلماذا تخافونه؟ لكن العبارة ترد على القصر: من المسرف حقاً؟ ومن الكذاب الذي ادعى الربوبية وملاً الأرض بالدم؟

هذه شجاعة المؤمن الحكيم: لا يصرخ لمجرد الصراخ، بل يجعل الحقيقة تمشي إلى قلب الخصم من طريق لا ينتبه إليه حتى تقف أمامه كاملة.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَنَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾

قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾.

لم يتبرأ منهم وهو ينصحبهم، ولم يخاطبهم من مقام التعالي الأخلاقي. أبقى جسر الانتماء قائماً؛ لأن الداعية لا يفرح بهلاك قومه، حتى وهو يرى انحرافهم.

﴿لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾.

نعم، لم يتكر الواقع. أنتم اليوم تملكون، وأنتم ظاهرون غالبون. لكنه وضع إلى جوار الملك كلمة تهدم غروره: ﴿الْيَوْمَ﴾.

كل سلطان بشري محبوس داخل هذه الكلمة: اليوم. مهما طال، فهو مؤقت. وكل قوة لا تقرأ غدها في ضوء الآخرة ستتحول إلى سبب هلاكها.

ثم نقلهم من الغرور بالقوة إلى سؤال المصير:

﴿فَنَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟﴾

لم يقل: فننصركم، بل: ﴿نَنْصُرُنَا﴾. أدخل نفسه معهم في الخوف، حتى لا تبدو النصيحة تشفياً. إن جاء العقاب فلن تسأل النار عن المناصب، ولن تميز بين من أصدر الجريمة ومن رضي بها وسكت عنها.

وهنا يكشف المؤمن زيف الأمان الذي تصنعه السلطة لأهلها. قد تحميهم من محاسبة الناس، لكنها لا تحميهم من بأس الله. وقد تمنحهم حصانة قانونية في الأرض، لكن لا حصانة في السماء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

هذه من أكثف الجمل في تشريح الاستبداد.

﴿وَمَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾.

لا يريد فرعون لأتمته أن ترى، بل يريد لها أن ترى بعينه. يلغي عقول الناس، ثم يمنحهم رأيه في صورة حقيقة نهائية. لا يسمح بتعدد النظر، لأن المستبد لا يخاف الرأي الآخر وحده؛ بل يخاف أن يكتشف الناس أن لهم أعيناً مستقلة.

إنه لا يقول: هذا اجتهادي، بل يجعل رؤيته حدود العالم. فما لا يراه لا وجود له، وما لا يوافق لا يحق له أن يُسمع.

ثم يبلغ قلب التزييف:

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

فرعون يهدي إلى الرشاد! هكذا يتكلم من يقتل الأبناء ويستحي النساء. فالمستبد لا يرى نفسه شراً بالضرورة، بل يبني حول أفعاله سردية تجعله مخلصاً. وقد يكرر كذبه حتى يسكنها، فيصبح أخطر؛ لأنه يرتكب الجريمة بضمير مزيف يظن نفسه حامياً للخير.

لكن الرشاد الذي يحتكره فرعون هو الطريق الذي ينتهي إلى عبادته. كل طريق يعيد الناس إلى الله عنده ضلال، وكل فكر يحرقهم فساد.

والفرق بين خطاب فرعون وخطاب المؤمن أن فرعون يقول: أنا أرى؛ والمؤمن يقول: ربكم، آياته، بأس الله، يوم الحساب. الأول يرد الناس إلى ذاته، والثاني يردهم إلى الله.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۖ مِثْلَ دَاوُدَ قَوْمِ نُوحَ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾
مرة أخرى يقول:
﴿يَا قَوْمِ﴾.

إنه يخاف عليهم، لا منهم فقط. يخاف من بطشهم، لكنه يخاف عليهم من المصير أكثر. وهذه منزلة عالية من الرحمة: أن ترى في خصمك إنساناً يندفع إلى هلاكه، فتقاوم باطله دون أن تتغنى له النار.

ذكّرهم بقوم نوح وعاد وثمود. فالتاريخ عند المؤمن ليس حكاياتٍ للتسلية، بل مرايا يرى فيها الحاضر نهايته المحتملة.

لكل طاعية شعورٌ بأنه استثناء؛ يقرأ أخبار السابقين ويظن أن القوانين التي أخذتهم لن تصل إليه. لكن المؤمن يقول لهم: أنتم لستم خارج السنن. القوة التي بين أيديكم سبقتكم إليها أممٌ أشد، ثم صارت أخباراً.
﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾.

إذا نزل العقاب فليس لأن الله يظلمهم، تعالى الله عن ذلك، بل لأنهم أصروا حتى استنفدوا فرص الرجوع. إن عدل الله لا يباغت بريئاً، ولا يعاقب بلا بيان، ولا يأخذ النائب بحرية المستكبر.

تأمل رقة هذا المؤمن في قلب الرعب: يذكّرهم بالعقوبة، ثم ينزه الله عن الظلم، حتى لا يدخل اليأس إلى قلوبهم. ما زال يقول ضمناً: تستطيعون أن تعودوا؛ فالله لا يريد ظلمكم، وإنما أنتم الذين تقودون أنفسكم إلى الهلاك.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿١٠﴾ يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴿١١﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

هو يوم التناد؛ يوم تتعالى النداءات: ينادي الناس بعضهم بعضاً، وينادي أصحاب الأعراف، وينادي أهل الجنة أهل النار، وينادي أهل النار طلباً للخروج أو التخفيف، لكن زمن الاستجابة النافعة قد مضى. كم من نداءٍ إلى الله سمعوه في الدنيا فأعرضوا عنه، فإذا بهم يوم القيامة ينادون ولا يجدون مخرجاً!

﴿يَوْمَ تُؤَلَوْنَ مَدِيرِينَ﴾.

الذين كانوا ظاهرين في الأرض سيؤولون مديرين. يا للمقابلة! كانوا يتقدمون في المواكب، فإذا هم يفرون. كانوا يمنعون الناس من الهرب من سلطانهم، فإذا هم يبحثون عن مهرب من سلطان الله.

﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

لا قصر يعصم، ولا نسب، ولا جيش، ولا حيلة. وكل ما احتوى به الإنسان من الله ستركه في اللحظة التي يحتاج إليه فيها.

ثم:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

من اختار طريق العمى، وردّ البنات، وأصر حتى استحق أن يوكَل إلى ضلاله، فلن يستطيع أحد أن يصنع الهداية في قلبه. فالهداية ليست ذكاءً يملكه الإنسان، بل نعمةٌ ينبغي أن يخاف عليها، ويسأل الله ثباتها، ولا يتعامل معها كأنها حق مكتسب لا يزول.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ كُرَّ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَ كُرَّ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾

يذكرهم المؤمن بتاريخ أقرب إليهم: يوسف عليه السلام، الذي عاش في مصر، وجاء بالبينات.

لكنهم ظلوا في شك. ليس شك الباحث الذي يتألم لأنه لم يصل، بل شك المقيم في التردد؛ يتخذ منزلاً حتى لا تلزمه الحقيقة بشيء.

ثم مات يوسف، فقالوا:

﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

في حياته شكوا فيه، وبعد موته جعلوا غيابه حجةً لإنكار من يأتي بعده. لم يكونوا أوفياء ليوسف، بل أرادوا تحويله إلى ماضي آمن لا يزج حاضريهم.

ما أسهل على الناس أن يجدوا المصلحين بعد موتهم؛ لأن الميت لا يواجههم بتكاليف كلمته. يصنعون له تمثالاً في الذاكرة، ثم يحاربون كل حي يحمل الرسالة نفسها. إنهم لا يرفضون الأشخاص فقط، بل يرفضون أن يظل باب السماء مفتوحاً على حياتهم بالتوجيه والمحاسبة.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

الإسراف تجاوز للحد، والارتياح استيطان للشك. فإذا جمع الإنسان بين فساد السلوك ورفض اليقين، صار قلبه يبتعد كلما اقتربت منه البيئة.

الخطوة الثانية والثلاثون: الجدل الذي يكبر مقتاً ويصغر حجة

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾

إنهم يجادلون بغير سلطان؛ بلا حجة من عقل صحيح، ولا وحي، ولا علم. لكن غياب الدليل لا يمنع ارتفاع الصوت؛ فقد يكون المرء خالي اليد من البرهان، ممتلئ اللسان بالخصومة.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

لأنهم لم يضلوا وحدهم، بل جعلوا من ألسنتهم جدراناً بين الناس وبين الآيات. إن الخطأ الذي يعترف صاحبه بضعفه أقرب إلى الشفاء، أما الباطل حين يرتدي ثياب الحجة ويجادل عن نفسه، فإنه يفسد العقل والضمير معاً.

﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

المؤمن يمقت الجدل المتكبر، لا لأنه يكره صاحبه كإنسان، بل لأنه يرى كيف تُستعمل نعمة العقل في الهرب من النور، وكيف تتحول اللغة من جسرٍ إلى الحقيقة إلى سلاحٍ لتشويهها.

ثم النتيجة المخيفة:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾.

إن الطبع لا يأتي من سؤالٍ صادق ولا من زلةٍ عابرة، بل من كبرٍ مستمر وجبروتٍ يرفض الانقياد. يرد الإنسان الحق مرةً بعد مرة، حتى يفقد القدرة على تذوقه. يصبح النور أمامه، لكن العين الداخلية لم تعد تستقبله.

الكبر ليس خُلُقاً جانبياً؛ إنه قفلٌ يوضع على باب القلب. والمتكبر لا يعجز عن فهم الدليل دائماً، بل يأنف أن يكون الحق قد جاءه من غيره، أو أن يعترف بأنه كان مخطئاً.

لذلك كانت سلامة القلب في أن يبقى قابلاً للتصحيح، وألا يجعل الإنسان كرامته في الانتصار لرأيه، بل في الرجوع إلى الحق متى ظهر.

المحطة الثالثة والثلاثون: برج إلى السماء يبنيه العجز عن مواجهة المحجة

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۖ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾

لم يستطع فرعون مواجهة حجة موسى، فانتقل إلى صناعة مشهدٍ استعراضي. نادى مهندس سلطانه: ﴿يَا هَامَانُ﴾، وطلب بناء صرح.

إنه يريد أن يحول قضية الإيمان إلى مسرحية مادية: سأصعد، وسأبحث، ثم أعلن أنني لم أجد إله موسى! كأن الخالق جسمٌ تحيط به الجهات وتبلغه الأبراج؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

لم يكن فرعون يبحث عن الحقيقة؛ فقد أصدر حكمه قبل أن يبدأ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

إذن فالصرح لم يكن أداة بحث، بل أداة دعاية. النتيجة معدة سلفاً، والمشروع كله غطاءٌ يمنح الإنكار هيئةً علمية أمام الجماهير. وهكذا تصنع السلطة المتكبرة مؤسسات ضخمة لا لتكتشف الحقيقة، بل لتمنح كذبتها مظهرًا مهيبًا. قد يكون البناء عاليًا، لكن السؤال منخفض، وقد تكون الأدوات متطورة، لكن القلب مغلق.

ثم يكشف القرآن ما وراء القرار:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

المصيبة ليست أن يفعل الإنسان السوء فحسب، بل أن يُزَيَّن له حتى يراه إنجازًا. عندئذ لا يعود يطلب المغفرة؛ لأنه لا يرى جريمة، بل يرى مجداً.

بُني الصرح إلى أعلى، لكن صاحبه كان يهبط. وكلما ارتفع البناء، ازداد فرعون بعداً عن السبيل. فالعلو المادي لا يرفع الروح، وقد يسكن الإنسان أعلى القصور وقلبه في أسفل دركات العمى.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

كل هذا التخطيط إلى خسار، وكل هذه الأبراج إلى انهيار، وكل هذا الضجيج إلى صمت. أراد أن يصعد لينفي إله موسى، فإذا بالتاريخ كله يشهد أن موسى بقي، وأن فرعون غرق.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

كان فرعون قد قال قبل قليل:

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

والآن يقول المؤمن:

﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

العبارة متشابهة، لكن الطريقتين متعاكسان. وهذا يكشف أن المعركة ليست دائماً بين شعار جميل وشعار قبيح؛ فقد يستخدم الباطل الكلمات نفسها التي يستخدمها الحق: الرشاد، المصلحة، الأمن، الإنقاذ. وإنما يعرف صدق الشعار بالغاية التي يقود إليها. فرعون يقودهم إلى ذاته، والمؤمن يقودهم إلى الله.

فرعون يريد منهم أن يتبعوه ليحفظ ملكه، والمؤمن يدعوهم ليحفظوا أرواحهم. فرعون فوق عرشٍ عظيم، لكنه لا يرى الطريق. والمؤمن رجلٌ واحد في مجلسٍ معادٍ، لكنه يحمل المصباح.

هنا يتبدل ميزان القوة مرةً أخرى: قد يكون صاحب السلطة عاجزاً عن الهداية، ويكون المستضعف دليل أمة. ليست المنزلة فيما تملك من الأرض، بل فيما تحمل من نور.

﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

هذه الجملة هي قلب موعظة المؤمن.

﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾.

لم يقل إنها لا قيمة لها؛ فالمتاع يُنتفع به. لكنها ليست وطنًا نهائيًا. هي زاد الطريق، لا نهاية الطريق؛ ومزرعة، لا موسم الحصاد.

المشكلة ليست في أن يمتلك الإنسان متاع الدنيا، بل في أن يتعامل مع المتاع كأنه القرار. أن يبني قلبه داخل شيءٍ راحل، ثم ينهار حين يرحل.

كل ما في الدنيا يحمل علامة الفناء وإن بدا جديدًا: الصحة تتغير، والوجوه تشيخ، والبيوت تنتقل من يدٍ إلى يد، والمناصب تخلع أصحابها، واللذة نفسها تنتهي لحظة بلوغها. لكن الآخرة:

﴿هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

جاء الضمير ﴿هِيَ﴾ كأنه يقصر القرار عليها. هناك فقط تنتهي الرحلة، وتستقر الأقدام، وتظهر النتيجة التي لا يعقبها امتحان.

كان المؤمن يقول لقومه: لماذا تبيعون دار القرار لتحفظوا متاعًا مؤقتًا؟ لماذا تخافون على مُلكٍ سينتهي، ولا تخافون على مصيرٍ لن ينتهي؟

إن كثيرًا من ضعف الإنسان أمام الباطل ينشأ من خللٍ في تقدير المدة. يرى ألم الموقف الآن، ولا يرى راحة الأبد. يرى خسارة الوظيفة أو المكانة، ولا يرى أن حفظ القلب أعظم. ولو حضرت الآخرة في الوجدان، لصغرت أمامها التكاليف العاجلة.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

في جانب السيئة عدل:

﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾.

لا زيادة، ولا ظلم، ولا تحميل فوق ما استحق صاحبها.

وفي جانب الحسنة فضل لا تحدّه المقابلة:

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

كأن السيئة تواجه ميزان العدل، والحسنة تدخل بحر الكرم. وهذا يكشف أن الله لا يريد للإنسان الهلاك؛ فقد ضيق طريق العقوبة بالمماثلة، وفتح طريق الثواب على غير حساب.

﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَىٰ﴾.

لا يضيع العمل عند الله بسبب جنس صاحبه، أو نسبه، أو موضعه الاجتماعي. المقياس هو الإيمان والصلاح. قد يجهل الناس فضل إنسان، أو تحجبه أعرافهم، لكن السماء لا تحجبها تلك الموازين.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

الإيمان هو الروح التي تمنح العمل وجهته ومعناه. ليس الصلاح حركةً خارجيةً فحسب، بل عملٌ يصدر عن قلب عرف ربه، وقصده، ورجا ما عنده.

ثم:

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هنالك تنتهي لغة الأرقام. لا يدخل أهل الجنة إلى رزقٍ يخشون نفاده، ولا يأخذون عطاءً محسوباً عليهم، ولا يطرق قلوبهم هاجس النهاية. إنها ضيافة الكريم الذي لا تنفذ خزائنه.

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾

إنها صيحة قلبٍ محبّ.

﴿مَا لِي؟﴾

كأنه لا يجد تفسيراً لهذا الانقلاب. أنا أريد لكم النجاة، وأنتم تريدون لي الهلاك. أدعوكم إلى بابٍ يفتح على الجنة، وتدعونني إلى طريقٍ ينتهي إلى النار. هذه هي غربة المؤمن الحقيقية: لا أنه يعيش وحده، بل أنه يحب للناس ما يظنونهم عداوة، ويرفض لهم ما يظنونهم مصلحة. قد يقابلون نصحه بالسخرية، وحرصه بالاتهام، ورحمته بالعدوان.

لكنه لم يقل: أدعوكم إلى نصري، بل:

﴿إِلَى النَّجَاةِ﴾.

لا يبحث عن أتباع لذاته، ولا يبني مجداً شخصياً. إنه يريد أن ينجوا، ولو لم يعرف التاريخ اسمه. ولهذا أخفى القرآن اسمه وأبقى كلمته؛ كأن العبرة ليست بشخصه، بل بذلك الإيمان الذي إذا امتلأ به القلب صار الإنسان حارساً لأرواح قومه، حتى وهم يهددون روحه.

﴿تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾

يكشف المؤمن حقيقة الطريقين.

هم لا يدعونه إلى فكرة محايدة، بل إلى أن يكفر بالله، وأن يجعل لله شريكاً لا يملك عليه دليلاً. والباطل مهما زين نفسه يبقى بلا علم؛ يقوم على الأوهام الموروثة، والمصالح، والخوف، وتقليد الأقوياء.

﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

إن الإيمان الحق لا يخشى البرهان، أما الشرك فيطلب من الإنسان أن يسلم قلبه لما لا دليل عليه. يدعونه إلى آلهة لا تسمع، وإلى سلطة بشرية تريد لنفسها شيئاً من حق الله، وإلى منظومة تطلب الطاعة ولو خالفت الحق.

ثم يقول:

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

يا جمال الاسمين في هذا المقام!

يدعوهم إلى العزيز؛ فلا يظنوا أن خروجهم من سلطان فرعون سيتركهم بلا قوة. من احتذى بالله خرج من عبودية الضعفاء إلى جوار العزيز الذي لا يُغلب.

ويدعوهم إلى الغفار؛ فلا يظنوا أن تاريخهم مع فرعون قد أغلق باب العودة. مهما شاركوا في الباطل، ومهما صمتوا عنه، فإن التوبة لا تزال ممكنة.

لم يقل: الغافر، بل الغفار، بما يوحي بكثرة المغفرة وتكررها. فالإنسان لا يخطئ مرة واحدة، والله لا يفتح له باب الرجوع مرة واحدة. كلما صدق في العودة وجد رباً لا يملّ من قبول التائبين.

إن المؤمن لم يواجههم بإله ينتظر زلتهم، بل عرفهم برّب عزيز يحمي من عاد إليه، غفار يحو ما كان قبل الرجوع.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾
﴿لَا جَرَمَ﴾؛ حقًا ولا شك.

ما تدعونني إليه لا يملك استجابة دعاء، ولا يستحق أن تُرفع إليه حاجة، ولا أن يُعلق عليه رجاء. قد يكون صمًا من حجر، أو بشرًا عظمه الناس حتى تجاوزوا به حدّه، أو قوة مادية حسبوا أنها تملك مصائرهم؛ لكن كل ما سوى الله فقير.
﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾.

في الدنيا قد يخدع الباطل أتباعه ببعض الأسباب، فيظنون أنه نفعهم؛ أما في الآخرة فتسقط العلاقات الوهمية كلها. يبرأ المتبوع من التابع، ويعجز المعبود الباطل عن نصره نفسه، فضلًا عن نصره عابديه.

ثم يرد المؤمن القضية إلى مركزها:
﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾.

المردُّ هو الرجوع. قد تختلف الآن، وقد يبدو أن القرار في يد فرعون، لكننا جميعًا عائدون إلى الله: موسى وفرعون، المؤمن وهامان، الحاكم والمحكوم، القاتل والمقتول.
وإذا كان الرد إلى الله، فمن الحق أن يبيع الإنسان رضا من سيرجع إليه برضا من سيقف معه عبدًا في الصف نفسه.
﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

الإسراف هنا ليس تجاوزًا عابرًا، بل مجاوزة حدود العبودية حتى يتأله الإنسان أو يمنح حق الله لغيره. وقد أسرف فرعون حين لم يكتفِ بمعصية الله، بل نازعه مقام الربوبية، وأسرف قومه حين أطاعوه في ذلك.

المحطة الأربعون: الكلمة الأخيرة قبل أن يُسلم المؤمن أمره لله

﴿فَسَتَدْرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

بلغ المؤمن نهاية ما يستطيع قوله. قدم المحجة، وحرك فيهم ذاكرة التاريخ، وخوفهم من يوم الحساب، وفتح لهم باب المغفرة. لكنه أدرك أن الكلمات لا تخلق الهداية في قلب يرفضها. فقال:

﴿فَسَتَدْرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾.

سيأتي وقت تستعيدون فيه هذه الكلمات، لكن الخوف أن يأتي التذكر بعد انتهاء القدرة على الاستجابة. كم من نصيحة يستخف بها الإنسان في وقتها، ثم تعود إليه بعد خراب الطريق، واضحة موجعة، كأنها قيلت للتو! إن للكلمة الصادقة حياة أطول من لحظة نطقها. قد يسخر منها السامعون الآن، لكنها تبقى في أعماقهم، وتنتظر اليوم الذي تسقط فيه حواجز الغرور. ثم قال كلمته التي صارت ملجأ لكل مؤمن أحاطت به المخاوف:

﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

التفويض ليس عجزاً عن العمل؛ فقد تكلم المؤمن في أخطر مجلس، وأدى واجبه كاملاً. وبعد أن فعل ما يستطيع، سلم ما لا يستطيع إلى الله. هناك فرق بين من يترك العمل ويسمي تركه توكلاً، وبين من يبذل وسعه ثم يحرق قلبه من التعلق بالنتائج. المؤمن قال، وواجه، ونصح، ثم لم يجعل سلامته رهينة بحسابات القصر؛ بل وضع أمره كله في يد الله. ﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي﴾.

لم يقل: أفوض نجاتي وحدها؛ بل أمره كله: حياته وموته، أثر كلمته، مصير قومه، والخطر الذي يقترب منه. كأنه جمع مخاوفه جميعاً ووضعها عند باب الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

يراني وأنا وحدي بينهم، ويرى ما يدبرونه، ويرى صدقي وضعفي، ويرى الطريق الذي لا أراه. ومن كان الله بصيراً به، فكيف يضيع أمره؟

التفويض سكينه لا يعرفها إلا من استنفد طاقته ثم أدرك أن الكون لم يكن محمولاً على
كتفيه. قل ما يجب أن تقول، وافعل ما يجب أن تفعل، ثم لا تستعبدك النتائج، فإنها في يد
من يرى المشهد كاملاً.

المحطة الحادية والأربعون: حين تولى الله الدفاع عن فوض أمره إليه

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

ما أسرع الجواب!

قال المؤمن: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾، فجاءت الآية التالية مباشرة:

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ﴾.

كأن بين التفويض والوقاية باباً لا يراه إلا القلب. حين أخرج المؤمن أمره من حوله المحدود إلى حول الله، تولاها الله.

لم تقل الآية إنه لم يتعرض لمكر، بل قالت:

﴿سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوا﴾.

لقد مكروا فعلاً، وخططوا، وربما أحكموا الأسباب في نظرهم؛ لكن الخطة التي لا تراعي إرادة الله تحمل فشلها في داخلها.

قد لا يمنع الله الأعداء من التفكير في الأذى، لكنه يمنع الأذى من بلوغ الغاية التي أرادوها. وقد تقع بعض الآلام، لكن الله يقي العبد سيئتها الكبرى: يقي دينه، ويقي قلبه من الانكسار للباطل، ويجعل من المحنة طريقاً إلى الرفعة.

وفي الجهة الأخرى:

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

المكر الذي أرادوا أن يحيط بالمؤمن عاد فأحاط بهم. كانوا ينصبون دائرة الهلاك لغيرهم، فإذا هم في داخلها.

وهذه من سنن الله: قد يتأخر رجوع المكر إلى صاحبه، لكنه لا يضيع. فن حفر للحق حفرة جعل الله تلك الحفرة شاهداً على سقوطه.

المحطة الثانية والأربعون: عذابٌ يبدأ قبل قيام الساعة

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

كان لآل فرعون في الدنيا غدوٌ وعشيٌّ من نوع آخر: قصور، وأوامر، وحرس، ومظاهر سلطان. أما بعد الموت فقد صاروا يُعرضون على النار غدوًا وعشيًّا. مات فرعون، لكن موته لم يكن انطفاءً للقصة ولا مهرباً من الجزاء. لقد انتقل من سلطانٍ قصير إلى عرضٍ متكرر على النار، ثم ينتظره ما هو أشد: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

الذين كانوا يدخلون الناس السجون يدخلون اليوم أشد العذاب. والذين عرضوا المستضعفين على الخوف والألم يُعرضون على النار. إن الموت لا يُسقط القضايا عند الله، ولا يمنح الطغاة حصانةً بسبب انقضاء أعمارهم. قد يموت المجرم قبل محكمة الأرض، وقد يفر من العقاب، وقد تُكتب عنه رواياتٌ تبرّئه؛ لكن الموت لا يخرجُه من سلطان الله، بل ينقله إلى عدالةٍ لا يستطيع التأثير فيها. وفي الآية تسليّةٌ لكل مظلوم لم ير إنصافه في الدنيا: ليست الدنيا الصفحة الأخيرة من الكتاب.

المحطة الثالثة والأربعون: الخصومة التي انتقلت معهم إلى النار

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾

انتهت المواكب، وسقطت الألقاب، لكن العلاقة المسمومة التي جمعت المستكبرين بأتباعهم تحولت إلى خصومة.

يقول الضعفاء:

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾.

أطعناكم، ورددنا كلماتكم، ودافعنا عن ظلمكم، وسلطناكم عقولنا وضمايرنا. كنا نظن أن قربنا منكم سيحمينا، وأتينا إذا خدمنا سلطانكم نلنا شيئاً من أمانكم. ثم يأتي الطلب اليأس:

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ؟﴾

لا يطلبون إخراجهم كله، بل تخفيف نصيب من النار. لقد تقلص الرجاء حتى صاروا يسألون قادتهم أن يحملوا عنهم جزءاً مما ورطوهم فيه.

إنها النهاية الطبيعية للتبعية العمياء. من سلم عقله لغيره لن يعفى من مسؤوليته؛ لأن الله وهبه عقلاً، وأرسل إليه آيات، وجعل في فطرته قدرة على التمييز.

ليس الضعف عذراً دائماً. قد يكون الإنسان ضعيف اليد، لكنه لا يُكره على أن يحب الباطل بقلبه، ولا على أن يزينه بلسانه، ولا على أن يحول الطاعة البشرية إلى عبادة.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾

يا له من جوابٍ بارد بعد تأريخٍ طويل من الوعود!

كان المستكبرون في الدنيا يقولون لأتباعهم: نحن نحميكم، ونحن نرزقكم، ونحن نعرف مصلحتكم. أما الآن فيقولون:

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾.

نحن وأنتم سواء في العجز. لم يعد السيد قادراً على دفع النار عن نفسه، فكيف يدفعها عن تابعه؟

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

في الدنيا كانوا يتصرفون كأَن الحكم إليهم؛ يصنعون القوانين التي تحمي ظلمهم، ويكتبون التاريخ بأقلامهم، ويجرمون من يعارضهم. أما الآن فقد صدر الحكم من المحكمة التي لا يملكون فيها صوتاً ولا وساطة.

إن كل علاقة لا تقوم على الحق ستتكشف يوم القيامة عن عجزها. وحدها الصحبة التي تعين على طاعة الله تبقى نعمة؛ أما صحبة التملق والمصلحة فتتحول إلى تبادلٍ للاتهامات.

المحطة الخامسة والأربعون: حين يطلب أهل النار من الخزنة أن يدعوا بدلاً عنهم

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾

لم يقولوا: يرفع عنا العذاب، بل:

﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾.

يومٌ واحد من التخفيف صار أوسع أمانهم. أين الأعمار التي أنفقوها في طلب اللذة؟ أين السنوات التي استثقلوا فيها ركعاتٍ قليلة أو توبةً صادقة؟ صاروا الآن مستعدين لكل شيء في مقابل يومٍ واحد أخف المأ. وقالوا للخبزنة:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾.

لم يقولوا: ربنا. كأن البعد الذي اختاروه في الدنيا ظهر في العبارة. كانوا قادرين أن يدعوا الله مباشرة حين كان الدعاء عملاً نافعاً، فلما انتهى زمن العمل طلبوا من غيرهم أن يدعوا لهم.

كم من إنسان يؤجل الوقوف بين يدي الله، ويعيش على أدعية الآخرين، كأنه يستطيع أن يستعير علاقةً بربه! لكن لكل قلب بابُه الخاص إلى الله، ولا يغني عنه أن يكون حول الصالحين إذا ظل هو معرضاً.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

يسألهم خزنة جهنم:

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ؟﴾

لم تغلق الأبواب في وجوهكم قبل أن تفتح. جاءكم الرسل من جنسكم، تخاطبكم بما تفهمون، وتحمل بينات ترشدكم. فلماذا لم تدعوا الله وتستجيئوا له يوم كان الدعاء ينقذكم؟ قالوا:

﴿بَلَى﴾.

كلمة قصيرة تهدم أعمار عمرٍ كامل. بلى، جاءتنا الرسل. بلى، سمعنا. بلى، كانت الحجّة واضحة. لكننا سوفنا، وكابرنا، واتبعنا المستكبرين.

ثم يقال لهم:

﴿فَادْعُوا﴾.

ليس أمراً يحمل وعداً بالإجابة، بل إظهار لعجزهم بعد فوات الأوان.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

ضاع دعاؤهم لأنهم أضاعوا زمنه. أما اليوم، فما دام القلب ينبض، فإن الدعاء ليس في ضلال. اليوم تستطيع أن تقول: يا رب، فتجد الباب مفتوحاً. تستطيع أن تعترف، وتبكي، وتعود، فيكتب الله لك بداية جديدة.

إن عرض مشهد الدعاء الضائع في الآخرة هو دعوة إلى الدعاء النافع في الدنيا.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

بعد مشاهد الطغيان والنار والخصومة، تنزل هذه الآية على القلب كراية لا تسقط:
﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

جاءت مؤكدة: إِنَّا، ولام التوكيد، ونون العظمة. إنه وعدٌ من الله، لا أمنية بشرية. لكن النصر أوسع من الصورة التي يستعجلها الإنسان. قد يكون نصرًا بالتمكين، وقد يكون نجاة المؤمن من كيد عدوه، وقد يكون بثباته حين أراد الطاغية كسر روحه، وقد يكون ببقاء كلمته بعد موته وسقوط كلمه قاتله. أيهما انتصر: فرعون الذي غرق وبقي اسمه عنوانًا للطغيان، أم موسى الذي بقي وحيه وهدايته؟

وأيهما انتصر: أصحاب الأخدود الذين قُتلوا، أم الملك الذي أشعل النار؟ لقد حفظ الله إيمانهم في كتاب يُتلى، وجعل قاتلهم مثالاً للخزي. ليس النصر أن يظل جسد المؤمن سالمًا دائمًا، بل ألا يستطيع الباطل أن ينتزع منه حقيقة العبودية. وقد يقتل الطاغية حامل الرسالة، لكنه يعجز عن إجباره على الاعتراف بألوهية الطاغية. هناك ينتصر المؤمن في أعظم موضع: ينتصر داخل قلبه.
﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

لنصرة أثر في الدنيا، وإن خفي عن العين المستعجلة. يهلك الله أممًا، وينجي أولياء، ويكشف زيفًا، ويبقي ذكرًا حسنًا، ويزرع بالكلمة الواحدة أجيالًا من اليقين. ثم تمام النصرة:

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

يوم يقوم الملائكة والرسل والشهود، وتتكلم الجوارح، وتظهر الأعمال. هناك لا يبقى التباس، ولا يستطيع المنتصر الزائف أن يكتب الرواية كما يشاء. تظهر الحقيقة أمام الخلق جميعًا، وترد لكل روح كرامتها.

في الدنيا قد يحتاج الحق إلى زمنٍ حتى يُعرف، أما يوم الأشهاد فلا يحتاج إلا أن يُكشف الغطاء.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

قد يملك الظالم في الدنيا قدرةً عجيبةً على صناعة الأعذار. يسمي بطشه ضرورة، وخيائته اجتهداً، وجبنه حكمة، وحرصه على الدنيا مصلحةً عامة.

لكنه في يوم الأَشهاد يقف أمام علمٍ أحاط بنيته قبل فعله:

﴿لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾.

ليست المشكلة أنهم لن يتكلموا، بل أن كلامهم لن ينفع. فقد انكشفت الدوافع، وشهدت الجوارح، وزالت القدرة على تزييف المعنى.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ بُعدٌ عن رحمة الله بعد أن أبعدوا أنفسهم عنها.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾؛ لأنهم أساءوا اختيار الطريق، فانتبها إلى أسوأ قرار.

وما دام الإنسان في الدنيا، فإن الاعتذار الصادق ينفع، والتوبة تحو، ورد المظالم ممكن. أما أن يؤجل المرء اعترافه إلى يومٍ لا تنفع فيه المَعذرة، فذلك غاية الخسران.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

أراد فرعون قتل موسى، لكن الله آتاه الهدى. وأراد استئصال المؤمنين، لكن الله أورث بني إسرائيل الكتاب. فرعون كان يملك الأرض، وموسى كان يحمل الكلمة. ثم انقضت السنون؛ فذهبت الأرض من يد فرعون، وبقيت كلمة موسى. إن الميراث الحقيقي ليس القصور؛ فقد يرثها قومٌ لا يعرفون من بناها. الميراث الحقيقي نورٌ ينتقل من قلبٍ إلى قلب، وكتابٌ يصنع الإنسان بعد أن تنفى الدول. ﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾.

هو هدى يرسم الطريق، وذكرى توقظ ما تعرفه الفطرة ثم تنسَاه تحت ضغط الشهوات والعادات.

لكن الذي ينتفع هو:

﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أصحاب العقول الصافية التي لم تغلفها المكابرة. فاللب هو الخالص من الشيء؛ وكان العقل لا يبلغ حقيقته إلا حين يتحرر من قشرة الهوى والكبر. قد يحمل الإنسان معلومات كثيرة ولا يكون من أولي الأبواب؛ لأن العقل في القرآن ليس آلة جمع فحسب، بل بصيرة تقود إلى الخشية والاعتبار.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

بعد أن عرضت السورة وعد النصرة، جاءت الوصية:

﴿فَاصْبِرْ﴾.

فالوعد الحق لا يعني أن الطريق قصير. قد تكون النتيجة مضمونة، لكن السير إليها يحتاج إلى قلب لا تستهلكه المسافة.

الصبر ليس انتظاراً بارداً، بل ثباتٌ عامل: أن تظل على الحق حين يتأخر أثره، وأن تحسن العمل حين لا ترى ثماره، وألا تجعل بطء الفرج سبباً للشك في الوعد.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

ليست قوة المؤمن في أنه يعرف موعد الفرج، بل في أنه يعرف صاحب الوعد. قد يجهل كيف، ومتى، ومن أي باب؛ لكنه يعلم أن الله لا يخلف الميعاد.

ثم، مع مقام النبوة والثبات:

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾.

الطريق إلى الله لا يُقطع بالإعجاب بالنفس. كلما ارتقى العبد ازداد رؤيةً لتقصيره، وكلما عرف جلال الله علم أن عبادته لا تنفي حق النعمة.

والاستغفار لا يقف عند محو الخطأ؛ إنه تنظيفٌ مستمر للقلب من غبار الطريق. فالعامل للحق قد يتسلل إليه العجب، أو العجلة، أو الغضب للنفس، فيعيده الاستغفار إلى مقام العبودية.

ثم:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾.

ابداً نهارك واختمه بتزنية الله وحمده. فالتسبيح يحرر القلب من التصورات الناقصة: الله منزّه عن أن يخلف وعده، أو يضيع أوليائه، أو يغيب عنه مكر أعدائهم.

والحمد يجعل الروح ترى النعمة حتى في زمن الانتظار.

العشي والإبكار إطار اليوم كله؛ كأن المؤمن يحتاج إلى أن يغسل قلبه بذكر الله عند طرفي الزمن، حتى لا يتركه نهار الصراع مغطى بغبار الناس.

المحطة الحادية والخمسون: الكبر محاولة فاشلة لبلوغ مقام ليس للإنسان

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

تكشف الآية ما وراء الجدل:

﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ﴾.

قد تكون المسألة في ظاهرها فكرية، لكنها في باطنها نفسية. ليس كل من يجادل محتاجاً إلى دليل جديد؛ فقد يكون محتاجاً إلى أن يتواضع.

يرفض الحق لأنه جاء من شخص لا يعظمه، أو لأنه يهدد مكانته، أو لأنه يطالبه بالاعتراف بأن سنواته الماضية كانت خطأ. وهكذا يصير الكبر سيد العقل، يختار له ما يقبل وما يرفض.

﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾.

يتكبرون طلباً لعظمة لن يبلغوها. يريدون أن يرتفعوا فوق مقام العبودية، لكنهم لا يخرجون من كونهم خلقاً ضعفاء. يريد فرعون مقام الرب، لكنه لا يستطيع أن يمنع عن نفسه الغرق.

كل كبرٍ يحمل في داخله مفارقة: الإنسان يتعاضم ليغطي شعوره العميق بالنقص، فيزداد صغاراً كلما حاول أن يبدو كبيراً.

والعلاج:

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

لا تدخل مع المتكبر في معركة تستنزف قلبك، ولا تجعل ضجيجه يربك يقينك. احتم بالله من شره، ومن أن يتسلل كبره إليك وأنت تقاومه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

يسمع جدالهم، ويبرر ما في صدورهم، ويسمع دعاءك، ويبرر ثباتك. فلا تحتاج أن تثبت لله صدقك، ولا أن تكشف له خفايا خصمك؛ إنما تحتاج أن تبقى معه.

الخطوة الثانية والخمسون: الإنسان الذي استكبر وهو أصغر من أن يكون مركز الكون

﴿خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد الحديث عن الكبر، ترفع الآية رأس الإنسان إلى السماوات.

انظر إلى هذا الاتساع، وهذه الأفلاك، وهذا النظام الذي لا يختل، ثم انظر إلى الإنسان الصغير وهو يمشي فوق ذرة من هذا الكون ويقول في باطنه: أنا المركز!

﴿خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

الذي خلق هذا الكون العظيم لا يعجزه أن يبعث الناس. والإنسان الذي يستعظم نفسه ينبغي أن يتواضع أمام ملكوت لا يستطيع عقله أن يحيط بأطرافه.

لكن الكبر يضيق مجال الرؤية؛ لذلك قال:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قد يعرفون أرقام النجوم والمسافات، لكنهم لا يبلغون العلم الذي يثر خشوعاً. فالمعرفة التي تزيد الإنسان غروراً قد أعطته معلومات عن الكون، لكنها لم تمنحه بصيرة بموقعه فيه.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

ليس الفرق بين الإيمان والكفر اختلافاً هامشياً في الرأي؛ إنه فرق بين عمى وبصيرة، وبين روج ترى غايتها وروج تتحسس طريقها بلا نور.

الأعمى قد يملك عينين مفتوحتين، لكنه لا يرى دلالة الأشياء. يرى النعمة ولا يرى المنعم، ويرى الموت ولا يرى الرسالة، ويرى المظلوم ولا يرى مسؤوليته، ويرى الدنيا ولا يرى ما وراءها.

أما البصير فيرى بنور الوحي. لا يعني ذلك أنه يعرف كل شيء، بل يعرف كيف يضع الأشياء في مواضعها: الدنيا متاع، والآخرة قرار، والقوة أمانة، والإنسان عبد، والله هو الغاية.

ثم قرنت الآية الإيمان بالعمل الصالح؛ لأن البصيرة التي لا تغير الحركة لم تبلغ تمامها. لا يكفي أن ترى الطريق إذا بقيت واقفاً.

﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾.

لا يستوي من أصلح الأرض ومن أفسدها، ولو تشابهت منازلهم ومظاهرهم في الدنيا. قد يرفعهما المجتمع إلى الموضع نفسه، لكن ميزان الله لا يخلط بين قلبٍ عمر الحياة بالخير وقلبٍ ترك فيها جراحاً.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
﴿لَآتِيَةٌ﴾.

لا تحتاج الساعة إلى إيمان الناس كي تأتي. الحقيقة لا تتوقف على تصديقنا بها. قد ينكر المسافر نهاية الطريق، لكن إنكاره لا يوقف خطواته نحوها.

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

الريب يسكن النفوس، لا الحقيقة. الساعة في ذاتها يقين، وإنما تتردد القلوب لأنها لا تريد ما يترتب على اليقين بها.

فالإيمان بالآخرة ليس معلومةً باردة؛ إنه انقلابٌ في ميزان الحياة. من آمن أنه سيبعث، لا يستطيع أن يتعامل مع الدماء والأموال والكلمات كأنها بلا حساب. ولهذا يهرب بعض الناس من الآخرة؛ لا لنقص الدليل فقط، بل لأنهم يريدون دنيا بلا محكمة أخيرة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كثرة المنكرين لا تخفف من يقينها، كما أن كثرة النائمين لا تطفئ الشمس.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

بعد كل مشاهد الخوف والحساب، يأتي النداء قريباً دافئاً:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾.

لم يقل: ابجثوا عن طريق معقد إليّ، ولا اجعلوا بيني وبينكم حجاباً. قال: ادعوني. قل: يا رب.

قلها بفقرتك، وخوفك، وذنوبك، ورجائك. لا تحتاج إلى فصاحة؛ فإن الله يسمع انكسار القلب قبل ترتيب العبارة.

ثم الوعد:

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

والاستجابة أوسع من أن يمنحك الله الشيء في الصورة والوقت اللذين اخترتهما. قد يعطيك ما طلبت، أو يصرف عنك ما هو أشد، أو يدخر لك من الخير ما ستعرف عند رؤيته أن تأخير الجواب كان عين الكرم.

أنت تدعو من موضعك الضيق، والله يجيب بعلبه الواسع. ترى اللحظة، ويرى الطريق كله. ولو جعل الاستجابة تابعة لقصور تصورك، لأعطاك أحياناً ما يؤذيك ومنع عنك ما ينقذك. ثم جعل الإعراض عن الدعاء استكباراً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

لأن الدعاء اعتراف بالفقر، والمتكبر يضيق بأن يقول: لا أملك. يظن أن اعتماده على نفسه قوة، وهو في الحقيقة انقطاع عن مصدر القوة.

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

من أبي أن يذل لله اختياراً، جاء يوماً ذليلاً قهراً. أما المؤمن فيضع جبهته على الأرض فيرفعه الله، ويفتح كفيه فيملأ الله قلبه غنىً به.

يا ابن آدم، إن ربك الذي خلق السماوات يقول لك: ادعني. فأني كرامةٍ أعظم من أن
يأذن لك ملك الملك أن ترفع إليه حاجتك بلا موعد، وأن يسمعك بلا واسطة، وأن يفتح
لك بابه كلما عدت؟

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

بعد قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، تفتح السورة أمام القلب سَجلاً من الاستجابات التي سبقت الدعاء. قبل أن تطلب، كان الله قد هَيَّأَ لك عالماً يصلح لحياتك، وقَسَمَ زمانك بين سكون وحرارة.

﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

لم يخلق الليل فراغاً أسود، بل جعله سَكناً. يخفّ فيه ضجيج العالم، وتعود المخلوقات إلى أوكارها، وينزل على الأعصاب ستارٌ من الرحمة. كأن الله يطوي عنك مشهد الحياة قليلاً، حتى لا تستهلك الحركة المتصلة.

النوم في ذاته تسليم. تضع رأسك، وتغيب إرادتك، وتترك جسدك في رعاية الله. لا تدير قلبك وهو ينبض، ولا ترتيك وهما تنفسان، ولا تعلم إن كنت ستفتح عينيك مرةً أخرى. ثم تستيقظ فتجد أن الحافظ قد أعاد إليك وعيك، ومنحك يوماً جديداً.

وكم من حزينٍ لم يجد في يقظته راحة، فجعل الله النوم مهلةً من ألمه! وكم من مرهقٍ أعاده الليل إلى نفسه بعد أن بعثه النهار!

ثم:

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

لم يقل: مبصراً فقط، بل مبصراً، كأنه نورٌ يفتح عيون الأشياء. في النهار تظهر الطرق، وتحرك أسباب الرزق، ويتعرف الإنسان إلى الوجوه والمسافات.

الليل يحفظ الداخل، والنهار يفتح الخارج. هذا للسكون، وذاك للحركة. ولو دام أحدهما اختلت الحياة. فن الذي ضبط تعاقبهما بهذا القدر، وجعل اختلافهما رحمةً لا فوضى؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾.

الفضل يحيط بهم قبل أن يشعروا به. إنهم يعيشون داخل النعمة كما تعيش السمكة في الماء، ولذلك قد لا يرونها. لا يشعر الإنسان بقيمة الليل إلا إذا هجر النوم عينيه، ولا بقيمة النهار إلا إذا فقد بصره.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ليس لأن النعمة قليلة، بل لأنها كثيرة متكررة حتى ألفوها. الاعتياد حجابٌ كثيفٌ؛ يجعل العجيب عادياً، والفضل حقاً مكتسباً.

والشكر أن ترى وراء انتظام الأشياء منّة المنعم؛ أن تستيقظ فلا تقول في قلبك: عاد يومٌ آخر فحسب، بل تقول: أعاد الله إليّ فرصةً أخرى.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾
﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾.

الذي جعل الليل سكناً، والنهار مبصراً، وفتح باب الدعاء، ووعد بالاستجابة: هو الله ربكم. لم يخلقكم ثم يترككم، بل هو ربكم: يرزق، ويدبر، وينقل الإنسان من حالٍ إلى حال، ويصلح له من أمره ما لا يعرفه.

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

كل ما تقع عليه العين أو يتصوره العقل داخل في خلقه. وما دام هو خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق، والمخلوق لا يكون إلهاً. إن التوحيد ليس فكرةً منفصلةً عن الكون، بل النتيجة التي ينطق بها الكون كله. وحدة الخلق تدل على وحدة الخالق، وانتظام الوجود يدل على وحدة التدبير.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فلا يستحق العبادة إلا من خلق، ولا يُصرف كمال الذل والمحبة والرجاء إلا لمن يملك الأمر كله.

ثم يأتي السؤال المتعجب:

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟﴾

إلى أين تُصرفون عن الحقيقة وهي تحيط بكم؟ كيف ينتقل القلب من خالق كل شيء إلى مخلوقٍ لا يملك نفسه؟ وكيف يشهد الإنسان آثار الربوبية في كل نفس، ثم يمنح عبادته لما صنعته يداه أو عظمه وهمه؟

إن الضلال ليس دائماً فقدان الطريق في صحراء بعيدة؛ قد يكون انصرافاً عن حقيقة تقف أمامك في كل شيء.

﴿كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

ليس الانصراف عن الله حادثاً بلا أسباب. إنهم كانوا يجحدون الآيات؛ يرونها ثم يرفضون دلالتها، ويسمعونها ثم يبحثون عن حيلة للهرب منها. والمجود أخطر من الجهل. الجاهل قد يتعلم، أما الجاحد فقد عرف من الحق ما يكفيه، لكنه وضع إرادته في الجهة المضادة. كل مرة يرد فيها الإنسان الحق وهو يعلمه، يتزحزح قلبه قليلاً عن موضعه، حتى تصبح جهة النور غريبة عليه. وهكذا يكون الإفك عقوبةً من جنس العمل: لما صرفوا أنفسهم عن الآيات، صرفوا عن الانتفاع بها. إن القلب لا يبقى محايداً بعد لقاء الحق: إما أن يلين فيزداد هدى، أو يتكبر فيزداد بعداً.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

الأرض تتحرك في هذا الكون، لكن الإنسان يعيش فوقها في استقرار. يمشي، ويبنى، ويغرس، وينام مطمئنًا، كأنها ساكنة تحت قدميه.
إن كلمة ﴿قَرَارًا﴾ تفيض بالأمان. ليست الأرض موضع وجود فقط، بل موضع استقرار
هياه الله ليناسب ضعف الإنسان. ضبط جاذبيتها، ومسافتها، وماءها، وهواءها، وما فيها
من أسباب الحياة.
﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾.

فوقك بناءً مهيب، بلا عمد تراها. يفتح عينيك على السعة والجمال، ويحفظ نظام الحياة. أنت
تسكن بين قرار تحتك وبناءً فوقك؛ كأن الكون كله بيتٌ أعده الله لاستقبال هذا المخلوق
الصغير.

ثم يعيدك من الآفاق إلى نفسك:

﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾.

من منح الوجه هذا التناسق؟ ومن جعل العين في موضعها، والأذن في موضعها، واليد
قادرة على القبض والكتابة واللمس؟ ومن جعل ملامح البشر متشابهة في أصلها، متفردة في
تفاصيلها، حتى تكاد الوجوه لا تتكرر؟

وليس حسن الصورة جمال المظهر وحده؛ بل هيئة الإنسان القائمة، وقدرته على البيان
والتفكير، وما أودع الله فيه من عقلٍ وروح واستعدادٍ لمعرفة ربه.
لستَ حادثًا مهملاً في الكون. صورتك تحمل عناية الخالق بك، وتكوينك شهادة على أن من
خلقك أراد بك معنى.

﴿وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

لم يمنحكم ما يبقي أجسادكم فحسب، بل رزقكم طيباتٍ تلتذ بها النفوس. في الطعام ألوان وروائح ومذاقات، وكان يمكن أن يكون مجرد مادةٍ بلا لذة، لكن الله جعل الحاجة باباً إلى النعمة، والضرورة محاطةً بالجمال.

﴿ذِكْرُ اللَّهِ رَبُّكُمْ﴾.

الذي مهد الأرض، وبنى السماء، وصوّرك، ورزقك؛ هو الذي يدعوك إلى عبادته. فالتكليف لم يأت من غريب، بل من ربٍّ أغرقك في فضله قبل أن يأمرك.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

تعظم خيره، وتقدس ذاته، وكثرت بركاته. كل جمالٍ في الصورة أثرٌ من صنعه، وكل طيبٍ في الرزق قطرةٌ من جوده، وكل استقرارٍ في الأرض مظهرٌ من رحمته.

المحطة الستون: الحي الذي لا يموت

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

كل من تعلقت به في الدنيا يمر عليه الفناء. الأحياء الذين تحبهم محكومون بالموت، والقوى التي تخشاها تحمل أجلها في داخلها، والأبواب البشرية قد تُغلق بعجز أصحابها أو غيابهم. أما الله:

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾.

حياةً كاملة لا يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، ولا يعترها نوم ولا ضعف. كل حيٍّ استمد حياته منه، وهو قائمٌ بذاته، قيومٌ على خلقه.

وحين تدعو الله، لا تدعو من قد يغيب عنك غداً، ولا من يضعف قبل أن ينجدك، ولا من يموت فتضيع حاجتك عند بابه؛ إنما تدعو الحي الذي لا يموت.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

لأن العبادة لا تصلح لمن يعتره الفناء. كيف يجعل الإنسان قلبه عبداً لميتٍ أو فانٍ، ويترك الحي الذي لا تزول حياته؟

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

إذا كان هو الحي وحده الحياة الكاملة، فليكن الدعاء له وحده، وليتجرد القلب من الالتفات إلى من لا يملك إلا ما أعطاه الله.

ثم تختم الآية بالحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الدعاء يبدأ بالفقر وينتهي بالحمد. تسأله لأنك محتاج، وتحمده لأنك عرفت أن حاجتك في يد ربِّ كريم. وقد يحمّد المؤمن قبل أن يرى الجواب؛ لأن ثقته بحكمة المحيب أصبحت عنده نعمةً مستقلة.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
﴿قُلْ﴾.

لا يكفي أن يستقر التوحيد سرًا في القلب إذا كان المقام يحتاج إلى إعلان. قلها واضحة: إن العبادة لله وحده.
﴿إِنِّي نُهَيْتُ﴾.

المؤمن لا يصنع دينه وفق المزاج، بل يتلقى أمرًا ونهيًا من ربه. حريته الحقيقية ليست أن يعيش بلا مرجعية، بل أن يتحرر من عبودية المرجعيات الزائفة بالخضوع لله.
﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾.

لم يكن رفضه للشرك تعصبًا موروثًا، بل موقفًا قام على بينة. جاء النور، فانكشف زيف المعبودات. وحين يرى القلب الحقيقة لا يعود قادرًا على منح قداسة لما يعلم عجزه.
﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإسلام تسليمٌ واعٍ: أن تضع إرادتك في مراد الله، لا لأنك فقدت كرامتك، بل لأنك وجدت موضعها الصحيح. النفس لا تتحرر بترك العبودية؛ فالإنسان لا بد أن يتبع شيئًا. وإنما تتحرر حين تخرج من عبادة الهوى والناس إلى عبادة رب العالمين.
ولم يقل: لرب جماعة أو أرض، بل ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. إنه إسلامٌ يحرر الإنسان من ضيق العصبية إلى سعة العبودية لله الذي خلق الجميع.

الخطوة الثانية والستون: سيرة الإنسان كلها في آية

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

تضع الآية الإنسان المتكبر أمام أصله ومساره.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

هذا أصل الجسد الذي يختال ويتعالى. من تراب الأرض التي يدوسها بقدميه. فكيف يستكبر التراب على التراب؟ وكيف ينسى المخلوق أصل ضعفه؟

ثم:

﴿مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾.

كنت شيئاً صغيراً لا يملك لنفسه بقاءً، تنتقل في أطوارٍ لا وعي لك بها، وتعمل فيك قدرة الله وأنت لا تعرف شيئاً عن نفسك.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾.

تخرج ضعيفاً، عارياً من العلم والقدرة، تحتاج إلى يدٍ تحملك، وتُدِّي يرضعك، وقلبٍ يرحم بكاءك. لا تستطيع أن تشرح ألمك، ولا أن تدفع عن نفسك أذى.

ثم:

﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾.

تنمو القوة ببطء حتى يظن الإنسان أنها ملكه، وينسى سنوات العجز التي صنعها الله خلالها. يقف شاباً ممتلئاً بالحركة، كأنه لم يكن يوماً طفلاً، وكأنه لن يصير شيخاً.

﴿ثُمَّ لَيكونُوا شُيُوخًا﴾.

تعود القوة إلى الانحناء، ويبطئ الجسد الذي كان يندفع، وقد تحتاج اليد التي حملت الأطفال إلى من يحملها. وهكذا يجعل الله في مسار العمر موعظةً صامتة: لست مالك قوتك؛ فقد جاءت بغير أمرك، وتذهب بغير إذنك.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾.

ليس الجميع يبلغ الشيخوخة. ثمة أجلٌ قد يأتي في الطفولة أو الشباب أو اكتمال القوة. فلا مرحلة في العمر تمنح صاحبها عهداً بالبقاء.

﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى﴾.

أجلك ليس وقتاً ضائعاً في المجهول، بل موعدٌ مسمّى عند الله. لا يتقدم ولا يتأخر. كل يومٍ تعيشه ليس نجاةً من الموت، بل اقترابٌ من الأجل المكتوب.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

العقل أن تقرأ أطوار جسدك فتفهم عبوديتك. من تذكر أنه كان نطفة، وأنه سيصير جسداً بلا حركة، هان عليه الكبر، وعرف أن القوة مرحلة امتحان لا صفةٌ أبدية.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

بين هذين الفعلين تجري قصة كل إنسان. بدأت حياتك بأمره، وتنتهي حين يأتي أمره. لا الأطباء يخلقون الحياة، ولا الأمراض تستقل بصنع الموت؛ إنها أسباب تجري داخل مشيئة الله.

هو الذي يحيي قلباً مات بالمعصية، ويحيي أرضاً ماتت بالجدب، ويحيي الأجساد بعد أن تصير تراباً. وهو الذي يميت الطغاة وإن أحاطوا أنفسهم بالحرس، ويميت الأحياء حين يبلغون الموعد الذي لا يتأخر.
﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾.

كل ما يبدو للإنسان معتقداً واقع تحت سلطانٍ لا يعجز. نحن نحتاج إلى زمنٍ وأدواتٍ وتجارب، أما أمر الله فلا يقاومه شيء.
﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

لا يعني ذلك قولاً كقول المخلوق، تعالى الله عن مشابهة خلقه؛ وإنما هو تعبيرٌ عن نفاذ إرادته وكمال قدرته: إذا أراد شيئاً وجد بلا عجز ولا ممانعة.
هذه الكلمة تخلع من القلب عبودية المستحيل. ما تراه مغلقاً لا يغلق على قدرة الله، وما تراه بعيداً لا يحتاج عنده إلى الطريق الذي نتصوره. البحر الذي رآه أصحاب موسى نهايةً صار بأمر الله طريقاً، والنار التي أعدت لإبراهيم صارت برداً وسلاماً.
ليس معنى ذلك أن تترك الأسباب، بل أن تعلم أن الأسباب ليست آلهة. تفعل ما تقدر عليه، ثم ترفع قلبك إلى من يقول للشيء: كن، فيكون.

الحطة الرابعة والستون: الوجه التي سُسحب في الأغلال

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿١٠٢﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾

تعود السورة إلى مشهد المجادلين، لكن هذه المرة تعرض نهاية الجدل.

﴿أَنِّي يُصْرَفُونَ﴾.

كيف يُصرفون عن الآيات بعد كل هذا البيان؟ رأوا خلقهم، والليل والنهار، والأرض والسماء، وسمعوا خبر الطغاة، وعرفوا أن الله يبيحي ويميت؛ ثم ظلوا يجادلون.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾.

تكذيبهم ليس بصفحة واحدة، بل بخيط الرسالة الإلهية الممتد عبر التاريخ. إنهم يرفضون المبدأ نفسه: أن يكون للإنسان رب يخاطبه، وحق يحاكم أهواءه، وآخرة تنتظره.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

كانوا يجادلون لأنهم ظنوا أن الحقيقة قابلةٌ للتعطيل بالكلمات. سيعلمون حين تتحول الأخبار التي سخروا منها إلى واقع يحيط بهم.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾.

الأعناق التي استكبرت عن الانحناء لله تحمل الأغلال. والذي أبى قيد العبودية المحرر لله يقع في قيد العذاب.

﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾.

كانوا يسحبون المستضعفين إلى السجون، أو يسوقون الناس إلى الباطل، فإذا بهم يُسحبون عاجزين. لقد تبدلت مواقع القوة، وظهر أن الحرية التي عاشوها لم تكن إلا مهلة.

﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

مشهدٌ يهز القلب كي لا يتحول الحديث عن الآخرة إلى معنى باهت. القرآن لا يعرضه لتستمع النفس بالخوف، بل لتستيقظ. ما دام التحذير يُقرأ، فالباب لم يغلق بعد.

المحطة الخامسة والستون: أين الذين ملأوا قلوبكم حتى لم يبق فيها موضع لله؟

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾

يأتي السؤال:

﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾؟

أين الآلهة التي علقت بها الرجا؟ أين الزعماء الذين منحتهم من الطاعة ما لا يليق إلا بالله؟ أين المال الذي حسبتم أنه يعصمكم؟ أين الجمهور الذي خفتم غضبه أكثر من غضب الله؟

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.

غابوا، وضاعوا، وانقطعت الطرق إليهم. كانت المعبودات الباطلة حاضرة في الوعي حتى حجب الله، فإذا جاءت ساعة الحاجة الحقيقية لم يجدوا منها شيئاً.

ثم يقولون:

﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾.

كأنهم أدركوا أن ما عبدوه لم يكن شيئاً على الحقيقة؛ لا يملك، ولا ينفع، ولا يستحق. أو يحاولون الإنكار بعد أن انكشف العجز، لكن الإنكار لا يغير السجل.

إن الباطل يبدو كبيراً ما دام الإنسان ينفخ فيه من خوفه وطاعته. فإذا سحب الله عنه أوهام البشر، ظهر عدمه.

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾

ليست السورة تدم كل فرح؛ فالفرح بنعمة الله مشروع، والسرور الطيب من رحمته. إنما تدم:

﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

فرح البطر، وفرح الغلبة الظالمة، وفرح الإنسان بسقوط غيره، وفرح المجرم لأنه أفلت من الحساب، وفرح صاحب الباطل حين يرى صوته قد علا.

إن نوع ما يفرحك يكشف حقيقة قلبك. قد يتسم الإنسان بخبر تبكي منه السماء، ويفرح بانتصار جماعته ولو هُزم العدل. عندها لا يعود الفرح انفعالاً عابراً، بل موقفاً أخلاقياً.

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

المرح هنا خفة متكبرة، تتجاوز حد الاعتدال، وتنسى المنعم والمصير. إنهم لم يستعملوا النعمة في الشكر، بل جعلوها دليلاً موهوماً على أنهم فوق الحساب.

المؤمن يفرح، لكن فرحه لا يعميه. يضحك، لكن قلبه لا ينسى الله. أما البطر فيحول النعمة إلى حجاب، حتى لا يرى صاحبها اليد التي منحتة إياها، ولا اليد التي تستطيع أخذها.

المحطة السابعة والستون: أبواب جهنم والخلود الذي لا ينتهي

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

أبوابٌ متعددة، كأن لكل لونٍ من ألوان الانحراف مدخلاً، لكن النهاية واحدة.
﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

هنا تظهر فداحة استبدال دار القرار بمتاع قصير. لذة انطفأت، وسلطة انتهت، وكبر لم
يعش إلا سنوات؛ ثم خلود.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

تعود السورة إلى أصل الداء: الكبر. لم يكن نقص الدليل هو الذي أهلكهم، بل رفضهم أن
تخني قلوبهم للحق.

المتكبر يريد لنفسه مَثْوً عالياً في الأرض، فيختار بكبره أسوأ مَثْوً في الآخرة. ولو تواضع
للله لحظةً، وخرَّ ساجداً، واعتذر عن ذنبه، لرفعه الله إلى جناتٍ عالية.

ما أهون التواضع الآن، وما أثقل ذلَّ الكبر هناك!

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِينَا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾

تكرر الوصية:

﴿فَاصْبِرْ﴾.

لأن الداعية قد يؤمن بالوعد، لكنه يتعب من بطء ظهوره. يريد أن يرى بعينه سقوط الباطل وارتفاع الحق. فتقول له الآية: ليس شرطاً أن ترى القصة مكتملة في عمرك. ﴿فَإِمَّا نُرِينَا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾.

قد يريك الله بعض الجزاء، فتشهد انكشاف الكذب، أو ضعف الطغيان، أو انتشار الكلمة بعد محاصرتها. لكنه قال: بعض؛ لأن المشهد الكامل أكبر من حدود الحياة الدنيا. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

قد ترحل قبل أن ترى الثمرة. وليس ذلك ضياعاً لعملك؛ فالعامل لله لا يشترط أن يعيش حتى موسم الحصاد. يكفيهِ أن البذرة وُضعت في الأرض بعلم الله. ﴿فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾.

هذه هي الضمانة. القضية لا تنتهي بموتك، ولا يفلت خصمك لأنك غبت عن الدنيا. الجميع راجعون إلى الله، وهو الذي يفصل في القصة. ما أرحم هذه الآية بكل صاحب رسالة مات قبل أن يرى حلته! لم يكن مطلوباً منه أن يتم التاريخ، بل أن يؤدي أمانته في الجزء الذي عاشه. إن الله لا يكلفك أن ترى النهاية؛ يكلفك أن تكون صادقاً في الطريق.

المحطة التاسعة والستون: رسلُ نعرفهم ورسلُ استأثر الله بنجبرهم

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾

لست وحدك في طريق الرسالة. قبلك رسلٌ كثيرون: منهم من نعرف أسماءهم وقصصهم، ومنهم من لم يقصصهم الله علينا. كم من نبيٍّ مشى في أرضٍ لا نعرفها، ودعا قومًا لا نعرف أسماءهم، وتألم وصبر، ثم مضى دون أن يصل إلينا خبره! لكن جهلنا به لا يعني أنه مجهول عند الله. هنا عزاءٌ لكل مخلصٍ لم يشتهر: ليست القيمة أن تُروى قصتك للناس، بل أن تكون مكتوبةً عند الله. قد لا يعرفك التاريخ، لكن السماء تعرف موضع خطوتك.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الرسول عبدٌ لا يملك التصرف في ملك الله من تلقاء نفسه. والآيات ليست عروضاً تُستدعى لإرضاء تعنت المكذبين، بل تجري بإذن الله وحكمته. إن الإيمان لا يجعل صاحبه مالِكًا للنتائج الخارقة؛ يجعله عبدًا يقوم بما أمره الله، وينتظر ما يأذن به.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾.

قد يطول الجدل، وتتراحم الروايات، ويبدو الحق ضعيف الصوت؛ لكن إذا جاء أمر الله انتهت مرحلة الالتباس.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

هناك يعرفون أن ما ظنوه مهارةً في تعطيل الحق لم يكن إلا استثماراً طويلاً في الخسارة. المبطل قد يربح أموالاً ومواقع، لكنه حين يفقد نفسه، ماذا بقي له من الربح؟

المحطة السبعون: الأنعام آية تمشي إلى حاجة الإنسان

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ﴾

بعد أن ارتفعت السورة بنا إلى السماوات، وأرتنا مصارع الطغاة، تعيد أنظارنا إلى أنعام تمشي أمام الإنسان كل يوم. ففي الوحي لا توجد أشياء عادية؛ كل مألوف إذا نظر إليه بقلب حاضر عاد آيةً مذهشة.

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾.

لم يخلقها فحسب، بل ذللها وهيأها لمصالحكم. ترى الإنسان أضعف جسمًا من بعضها، ومع ذلك يقودها، ويركب ظهورها، وينتفع بألبانها ولحومها وأصوافها. فن الذي أودع في طبعها هذه القابلية للتسخير؟

كان يمكن لهذه الدواب القوية أن تنفر من الإنسان، وألا تتمكّنه من ظهورها، لكن الله جعل في نظام الخلق مهادنة خفية بين حاجات الإنسان وخصائص الحيوان.

﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

تحملكم في الطريق، ثم يكون منها الطعام. إنها نعمة تصاحب الإنسان في حركته وسكونه، في سفره وإقامته.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾.

جاءت المنافع مطلقة لتتسع لما عرفه الإنسان منها وما سيعرفه. فالنعمة الواحدة لا تأتي غالباً من باب واحد؛ إنما يفتح الله داخلها أبواباً متراكبة من الخير.

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

يا لركة التعبير: ﴿حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قبل أن تتحول الحاجة إلى رحلة، كانت أمنية تسكن الصدر: لقاء حبيب، أو طلب رزق، أو بلوغ مكان، أو نجدة ملهوف. ثم خلق الله للإنسان ما يحمله حتى يبلغ ما استقر في داخله.

إن الله لا يعلم الطرق فقط، بل يعلم الحاجات المختبئة في الصدور قبل أن تنطق بها الشفاه.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكَ تُحْمَلُونَ﴾.

حملٌ في البر، وحملٌ في البحر. تتغير الوسائل، لكن النعمة واحدة: الله هو الذي هيأ المادة، وعلم الإنسان الصنعة، وضبط قوانين الكون حتى يحمل الحيوان في الصحراء، وتحمل السفينة فوق الماء.

والإنسان في كل أسفاره محمول، وإن ظن أنه يمضي بقوته وحدها.

المحطة الحادية والسبعون: أي الآيات يستطيع الإنسان أن ينكر؟

﴿وَرِيكُمُ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾

لا يقول: يخبركم بآياته فقط، بل:

﴿وَرِيكُمُ﴾.

فآيات مرئية، محيطية، تطرق الحواس قبل أن تخاطب الفكر. الليل والنهار، الأرض والسماء، خلق الإنسان، الأنعام والفلك، الحياة والموت؛ كل شيء يحمل توقيع القدرة. ثم يأتي السؤال:

﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ؟﴾

أيها يمكن عزله عن دلالاته؟ أتنكر النفس التي تدخل جسدك وتخرج بلا سلطانك؟ أم تنكر الماء الذي ينزل من السماء؟ أم الوجه الذي صور، والطعام الذي طيب، والأرض التي قررت، والسماء التي بنيت؟

السؤال لا يطلب جواباً؛ لأنه يطوّق الجحود من كل جهة. إن أراد الإنسان الهرب من آية، وقع بصره على أخرى. وإن أغلق المصحف، بقي الكون مفتوحاً.

المشكلة ليست أن الله أخفى آياته، بل أن الإنسان قد يعتاد رؤيتها حتى يفقد الدهشة.

وحين تموت الدهشة، تمر المعجزات اليومية أمام القلب كأنها لا تقول شيئاً.

التدبر يعيد إلى العين براءتها الأولى؛ فيرى الإنسان الشيء الذي رآه ألف مرة، لكنه يراه هذه المرة بوصفه رسالةً من الله.

المحطة الثانية والسبعون: الحضارة التي لم تحم أصحابها من عاقبة التكذيب

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

للمرة الثانية تدعو السورة إلى السير في الأرض. فالغفلة قد تنشأ من ضيق النظر في اللحظة الراهنة، والتاريخ يوسع العين حتى ترى نهايات القوة.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾.

كان لديهم تفوقٌ عددي، وجموعٌ تملأ الساحات، وربما ظنوا أن كثرتهم دليلٌ على رضا الله أو ضماناً من السقوط.

﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾.

امتلكوا أدوات البطش، والقدرة على البناء والحرب، والسيطرة على الأرض.

﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾.

لم يكونوا جماعاتٍ عابرة بلا حضارة، بل تركوا آثاراً شاهدةً على التقدم والقوة. شادوا ما أنجز بعض من جاء بعدهم، وأقاموا عمراناً يوحى بالديموم.

لكن السؤال ليس: ماذا بنوا؟ بل: ماذا فعلت بهم أبنيتهم حين جاء أمر الله؟

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

لم تمنعهم ثرواتهم، ولم تنقدهم صناعاتهم، ولم تنقدهم آثارهم لتدافع عن أصحابها. بقي المنجز، وذهب الإنسان الذي اعتر به.

إن الحضارة تستطيع أن تحمي الإنسان من الحر والبرد وبعض الأمراض، لكنها لا تحميه من فساد روحه، ولا من عاقبة الظلم. وإذا تقدمت أدواته وتأخر ضميره، صار أقدر على صناعة هلاكه.

ليس القرآن عدواً للعمران، بل يريد عمراناً يعرف حدوده؛ حضارةً تبني الأرض ولا تهدم الإنسان، وتزداد علماً فتزداد تواضعاً، وتزداد قوة فتزداد عدلاً.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

جاءتهم الرسل بالبينات، لكنهم لم يقابلوا النور بالتواضع، بل:

﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

ليس العلم مذموماً؛ فهو من أعظم نعم الله. إنما المذموم علمٌ مغلقٌ على نفسه، يوهم صاحبه أنه أحاط بكل شيء، فيرفض ما وراء أدواته.

فرحوا بما عندهم؛ والقيد هو سر الداء. ظنوا أن ما عندهم هو كل ما يمكن أن يُعلم، وأن ما لم يدخل في مقاييسهم لا حقيقة له. فتحول الجزء الذي عرفوه إلى حجابٍ عن الكل الذي جهلوه.

إن الجاهل قد يقول: لا أعلم، فيفتح باب التعلم. أما الغرور بالعلم فيقول: لا وجود لما لا أعلم، فيغلق كل الأبواب.

العلم الصحيح يورث صاحبه تواضعاً؛ لأن كل جوابٍ يفتح أمامه أسئلةً أوسع، وكلما اقترب من أسرار الخلق أدرك مقدار ما يجهل. أما العلم المنفصل عن العبودية فقد يصنع من الإنسان فرعوناً جديداً؛ لا يقول: أنا ربكم بلسانه، لكنه يتصرف كأن عقله هو الحكم الأعلى على الوجود.

وقد يكون المراد بما عندهم من العلم معارف دنياهم، أو أوهاهم التي حسبوها علماً، أو ما ظنوه خبرةً بأحوال الحياة والرسول. وفي كل حال، كانت معرفتهم ناقصة، لكن فرحهم بها جعلها مكتفيةً في نظرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

كان العذاب مادةً للسخرية، ثم صار محيطاً بهم. والكلمة التي كانوا يطلقونها ضاحكين عادت إليهم حقيقةً لا يستطيعون ردها.

ما أخطر الاستهزاء؛ فهو لا يكتفي برفض الحق، بل يقتل في النفس القدرة على احترامه. يضحك الإنسان من الآية حتى يصبح ضحكه جداراً يمنعه من سماع نذيرها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

الآن نطقوا بكلمة التوحيد كاملة:

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾.

الكلمة التي رفضوها حين دعاهم إليها الرسل قالوها حين رأوا البأس. واعترفوا بزيف شرهم:

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

لكن السؤال ليس في صحة العبارة وحدها؛ بل في اللحظة التي قيلت فيها. قالوها بعد أن انكشف الغيب، وبدأ العقاب، وسقطت مساحة الاختيار.

كانوا في الدنيا قادرين على أن يؤمنوا بالله وهم يرون أسباب القوة في أيديهم. كان المطلوب أن يختاروا الحقيقة مع وجود شهوة الإنكار، وأن يصدقوا الوعد قبل أن تقع العين على الموعود.

أما حين رأوا البأس، فلم يعد الإيمان تسليماً حراً، بل اعترافاً اضطرارياً بما لا يمكن إنكاره. الإيمان الذي ينبغي هو أن تقول: آمنت بالله وحده حين تتنازعك الأصوات، لا بعد أن تسكت الأصوات كلها. أن تختاره حين تستطيع أن تعرض، وأن تصدق خبره حين لا ترى إلا وعده.

إن للمهلة قيمةً لأنها موطن الحرية. وحين تنتهي الحرية، تفقد الكلمات المتأخرة قدرتها على تغيير المصير.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

تصل السورة إلى خاتمتها بهذا الحكم:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾.

ليس لأن باب الله ضيق، فقد بدأت السورة باسم غافر الذنب وقابل التوب؛ بل لأنهم لم يطرقوا الباب إلا بعد أن انتهى زمن الدخول. ظل الباب مفتوحاً زمناً طويلاً: جاءتهم الرسل، وأقيمت البيّنات، ومُدّت لهم المهلة، ورأوا آثار السابقين، وأحاطت بهم آيات الكون والنفس. لكنهم اختاروا التأجيل حتى لم يعد التأجيل ممكناً.

﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

إنها سنة ثابتة: الإيمان عند حضور البأس لا يردّ العذاب عن ظن مصرّاً حتى عاينه. فالدنيا دار اختيار، وإذا تحول الغيب إلى شهادة بدأت دار الجزاء. وسنة الله لا تحابي أمةً ولا جنساً ولا عصرّاً. القوانين الأخلاقية التي أخذت الأمم القديمة لا تشيخ بمرور الزمن. قد تتغير المدن والأسلحة والملابس، لكن الكبر هو الكبر، والظلم هو الظلم، والتكذيب هو التكذيب. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

هناك ظهرت الخسارة التي كانت محتبئة خلف مظاهر الربح. كانوا في الدنيا يحسبون أنفسهم ناجحين؛ يملكون، ويظهرون، ويتقبلون في البلاد. لكن الحساب الأخير كشف أنهم كانوا يخسرون أنفسهم مع كل انتصار زائف.

الخسارة الحقيقية ليست أن يفقد الإنسان مالاً أو سلطاناً، بل أن يصل إلى الله بلا إيمان. وكل خسارة في الدنيا يمكن تعويضها ما دام القلب حياً، أما خسارة النفس في الآخرة فلا تعويض بعدها.

خاتمة الرحلة

من «غافر الذنب» إلى «وخسر هنالك الكافرون»

هكذا تنتهي سورة غافر من حيث بدأت: بدأت برَّبٍ يفتح باب المغفرة والتوبة، وانتهت بأناسٍ لم يدخلوا الباب حتى رأوا العذاب.

بين الافتتاح والختام تمتد مأساة الاختيار الإنساني.
في البدء يقول الله:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

وفي النهاية يقول:

﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

فالمشكلة لم تكن في قلة المغفرة، بل في تأخير التوبة. ولم تكن في غياب الآيات، بل في العين التي رفضت أن تراها. ولم تكن في ضعف الحجّة، بل في الكبر الذي أقام داخل الصدر.

إن السورة تبني أماننا عالمين متقابلين:

فوق الأرض عروشٌ بشريةٌ تنوهم الخلود، وفوقها عرش الرحمن تحفّ به الملائكة.
في القصر فرعون يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، وفي السماء كتابٌ ينزل من الله العزيز العليم.

في مجلس الطغيان رجلٌ واحد يكمّ إيمانه، لكنه حين تتجه اليد إلى قتل موسى يكشف أن للصمت نهاية، وأن الإيمان إذا لم يتحول في لحظة الحاسمة إلى كلمة حق، فقد يفقد شيئاً من أمانته.

فيقول:

﴿اتَّقُوا رَبَّ لَنْ بَقِيَ إِلَهُ كُفِّرُوكَ عَنْهُ لِيُذْخِرَ لِرَبِّهِمْ أَجْلاً﴾.

لم يكن مؤمن آل فرعون أقوى رجال القصر جسداً، ولا أكثرهم مآلاً، ولا أعلاهم منصباً، لكنه كان الرجل الوحيد الذي تحرر من وهم القصر. رأى فرعون عبداً قبل أن يراه ملكاً، ورأى موسى مؤيداً بالحق قبل أن يراه رجلاً مطاردًا.

وحين أحاط به المكر، لم يقل: أنا قادر على النجاة، بل قال:

﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

جاء الجواب:

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾.

وكان السورة كلها تريد أن تزرع في قلب المؤمن هذه الحقيقة: لست مطالباً بأن تكون أقوى من الطغيان، بل أن تكون أوثق بالله منه بقوته. لست مطالباً بأن تملك مفاتيح النتائج، بل أن تؤدي أمانة الموقف ثم تفوض أمرك إلى الله.

وفي قلب السورة يرتفع وعدٌ لا تطفئه القرون:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

قد يتأخر النصر عن الموعد الذي رسمته عجلتنا، لكنه لا يتأخر عن موعد الله. وقد يأتي في صورةٍ لم نحسبها: ثبات قلب، أو نجاة دين، أو بقاء كلمة، أو سقوط هيبة الباطل، أو عدالةٍ كاملة يوم يقوم الأشهاد.

لقد مات فرعون، وبقي سؤال المؤمن يتلى.

غرق صاحب الصرح، وبقي موسى.

ذهب هامان وتدييره، وقارون وخزائنه، وبقي الكتاب هدىً وذكرى لأولي الألباب.

والسورة، مع شدتها في كشف مصير المكذبين، ليست سورة يأس؛ بل سورة رجوع. إن اسم غافريظل مظللاً لكل مشاهدها. حتى وهي تعرض الأغلال والنار، فإنها تعرضها على قلبٍ لا يزال حياً ليهرب إلى الله قبل فوات الأوان.

وتقول له:

لا تجعل ذنبك يقودك إلى القنوط؛ فربك غافر الذنب.

ولا تجعل تكرار سقوطك يقطع رجاءك؛ فهو قابل التوب.

ولا تجعل رحمته ذريعةً للإصرار؛ فهو شديد العقاب.

ولا تمدن قلبك إلى خزائن البشر؛ فهو ذو الطول.

ولا تخف سلطاناً كأنه يملك مصيرك؛ فإنه وحده المصير.

وتقول لك، حين تضيق بك الأرض: إن ملائكةً حول العرش يستغفرون للذين آمنوا. قد لا يعرف أهل الدنيا وجعك، لكن السماء لا تجهلك. وقد لا يسمع الناس دعاءك، لكن ربك يقول:

﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

وتقول لك، حين ترى الباطل ظاهراً في الأرض: لا تغتر بتقلبه في البلاد؛ فقد كان قبله قوم نوح وعاد وثمود، وكانوا أشد قوةً وآثاراً، ثم صاروا خبراً.

وتقول لك، حين تقف وحدك في مجلسٍ امتلأ بالصمت: قد تكون الكلمة التي ترتجف في صدرك هي الحاجز الأخير بين قومٍ وبين جريمة. فانطق بها لله، بحكمة المؤمن ورحمته، لا بغضب النفس وتشفيها.

وتقول لك، حين تفعل ما تستطيع ولا تعرف ماذا سيحدث:

﴿وَأَفِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

إن سورة غافر ليست حكاية رجلٍ مؤمن عاش في قصر فرعون ثم انتفض؛ إنها سؤالٌ متجدد لكل مؤمن:

متى يجب أن يخرج إيمانك من مخبئه؟

ما الكلمة التي ينبغي أن تقولها ولو كرهها القصر؟

وما الأمر الذي أثقل روحك لأنك ما زلت تحمله وحدك، مع أن الله فتح لك باب التفويض؟

إنها السورة التي تعيد للقلب ميزانه: فوق كل قوة عزة الله، ووراء كل خفاء علم الله، وبعد كل ذنب صادق مغفرة الله، وأمام كل طغيان حساب الله، وفي نهاية الطريق نصر الله لأوليائه.

فيا من أثقلتك ذنوبك، ارجع؛ فهذا ربك غافر الذنب وقابل التوب.

ويا من أرعبك بطش الظالمين، اثبت؛ فإن كيد الكافرين في ضلال.

ويا من ضاقت بك الحيلة، فوض؛ فإن الله بصير بالعباد.

ويا من طال انتظارك، اصبر؛ فإن وعد الله حق.

ويا من ظننت أن كلمتك ضاعت، اطمئن؛ فإن يوماً سيقوم فيه الأشهداء، وستظهر فيه الكلمات بأوزانها الحقيقية.

حينئذ يعرف العالم كله أن المؤمن الذي وقف وحده لم يكن وحده، وأن الطاغية الذي أحاطت به الجيوش كان أعزل من غاية الله، وأن العاقبة لم تكن يوماً لمن علا صوته، بل لمن صدق قلبه، وثبت موقفه، وفوض أمره إلى رب العالمين.

تمت الرحلة التدرجية في سورة غافر، والحمد لله رب العالمين.